حاشية

كتاب التوحيد

بقلم الشيخ

إسحاق بن حمد بن عتيق

ـ رحمه الله ـ

١٢٨٧هـ - ١٣٤٣هـ

الطبعة الأولى

دار القاسم

حاشية

كتاب التوحيد

للشيخ إسحاق بن حمد بن عتيق

ـ رحمه الله ـ

١٢٨٧ ـ ١٣٤٣ هـ

الطبعة الأولى

دار القاسم
الرياض ١١٤٤٢ ص. ب ٦٣٧٣
ت/ ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس/ ٤٠٣٣١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيق، إسماعيل سعد إسماعيل
حاشية كتاب التوحيد/ إسماعيل سعد إسماعيل العتيق . - الرياض، ١٤٢٩هـ
... ص؛ ... سم
ردمك: ٦ - ٢٦٤ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ - التوحيد أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩/٣٨٦٢

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٨٦٢
ردمك: ٦ - ٢٦٤ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم للنشر

جدة . هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام . هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة . هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط . هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ - فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠

www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح المصنف رحمه الله بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز وتأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته ومراسلاته وعملا بحديث كل امر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو اقطع قوله كتاب التوحيد سمي دين الاسلام توحيدا لان مبناه على ان الله واحد في ملكه وربوبيته لا شريك له وواحد في اسمائه وصفاته لا نظير له وواحد في الهيته وعبادته لا ند له قوله وقول الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون قال شيخ الاسلام العبادة هي طاعة الله بامتثال ما امر الله به على السنة الرسل ومعنى الاية ان الله تعالى اخبر انه ما خلق الجن والانس الا للعبادة فهذا هو الحكمة في خلقهم قلت وهي الحكمة الشرعية الدينية وقرا ولقد بعثنا في كل امة رسولا الاية الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد واما معنى الاية فاخبر تعالى انه بعث في كل طائفة رسولا بهذه الكلمة اي اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله أمر بالتوحيد، وجعله غاية خلقه للعبيد، والصلاة والسلام على نبي الرحمة الداعي لمعالم الحق بالبيان وأسنة الحديد وبعد....

فكلما عظم الأمر تكاثر دعاته واشتهرت أسماؤه وسماته، ولا شيء أعظم من توحيد الله بعد معرفة ذاته ومع أن تلقين الشهادتين والنطق بهما مفتاح الإسلام بل هو الإسلام كله، وتعني كمال الإخلاص لله والاتباع لرسوله، وهما الركنان الأعظمان في توحيد رب العالمين، انقاد المسلمون لهذه الكلمة من غير عنت ولا تعنت، وفهموا المعنى الفعلي والقولي والاعتقادي من الاتباع لرسول الله ﷺ، غير أنه عبر الدهور والعصور جد ما يوجب توضيح العبادة والاتباع والذب عن الإسلام ونفي الشبه والأوهام فكان دور التجديد لمفهوم التوحيد غاية ما يدعوا إليه الداعي، وأعظم ما يبذل من أجله الساعي، والتجديد بمعناه الكامل الشامل يعني إحياء مآثر السلف، وفي القمة تفسير شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إذ كان للذوق الإنساني ما يجنح به إلى غير الهدى ويستسيغ ما يقربه للردى، وبالأخص في عالم الغيبيات كالسحر والكهانة والتنجيم والعرافة وسائر الشعوذات مما ينافي توحيد العبادة ويخالف نهج الاتباع، وممن أوغل في بيان لطائف التوحيد وبيان ما ينافيه أو ينافي كماله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مؤلفه الوجيز «كتاب التوحيد» في سبع وستين باباً.

كان هذا الكتاب في أبوابه ومسائله مورد الظمآن، ينبوعه الكتاب والسنة، وثمرته دخول الجنة، تلقفه تلامذة الشيخ تلقف الغيث من السماء لإرواء الغليل، والاستشفاء به لكل عليل، فأول من أعرب معجمه وفك أسرار أبوابه ومسائله حفيد المؤلف

سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب أسماه «تيسير العزيز الحميد» ثم انتحى نحوه واقتفى أثره العلامة المجدد الشيخ عبد الرحمن بن حسن في كتابه «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» واقتفى أثرهما وحاكاهما في التأليف الشيخ حمد بن عتيق في كتابه «إبطال التنديد» اتجه للاختصار ليكون بداية للطالب.

وقد مضى على كتب الشروح الثلاثة عشرة عقود أو تزيد، وبعدها أدلى الشيخ إسحاق بن حمد بن عتيق بدلائه وأراد أن يقتفي أثر أسلافه فحرر أوراقاً ليست بالكثيرة على كتاب التوحيد، وقد وقعت في يدي نسختان نسخة بخطه ونسخة بخط ابنه محمد، وبتصفح النسختين رأيت أنه لم يكمل ما أزمع عليه أو أنه أكمله ولم نعثر على باقيه، وما وجدناه ينتهي عند الباب التاسع والأربعين باب قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: ٥٠] وقد كلفت أحد الإخوة بنسخ الكتاب من أصله، فبادر بتنفيذ الطلب، وأثبت متن كتاب التوحيد وهمش عليه بشرح الشيخ إسحاق، وحيث إن الكتاب تحفة في أيدي القراء وبالأخص إذا كان فيه زيادة فوائد فقد رأيت طبعه ونشره إلى حيث انتهى الشارح.

ثم بدا لي أن أستكمل الكتاب من كتاب «إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد» للشيخ/ حمد بن عتيق لتتم الفائدة.

نسأل الله أن ينفع به، وأن يجعل ما كتبه قرة عين للموحدين.

وصلى الله على محمد.

غرة شهر محرم ١٤٢٩هـ

إسماعيل بن سعد بن إسماعيل بن عتيق

التعريف بالشارح

هو إسحاق بن حمد بن علي بن محمد بن عتيق لا مزيد على علَمِه المجرد ونسبته لأبيه وجده، ولد إسحاق عام ١٢٨٧هـ يوم الاثنين التاسع من شهر رجب وتوفي يوم عيد الأضحى عام ١٣٤٣هـ وميلاده ووفاته في بلده العمار بالأفلاج وعمرٌ ستة وخمسين عاماً ـ ومن المؤكد أنه رضع لبانة العلم من والده في صباه فقد توفي والده وعمره أربعة عشر عاماً غير أن الشيخ سحمان بن مصلح الخثعمي أحد الركائز التعليمية في بلد الأفلاج وعليه تلقى إسحاق معارفه الأولية، وشيخه الذي برع على يديه هو أخوه الشيخ سعد، وربما تلقى عن الشيخ سليمان بن سحمان غفر الله لهما.

جرت الأحداث السياسية على نجد وجرت معها وابل الويلات والملمات مما جعل العلماء وطلابه في أحرج الأحوال يصور لنا الشيخ إسحاق في قصيدته الميمية بعض تلك الظروف في قوله:

إلى الله في كشف الهموم العظائم ... نفر ونشكو كل باغ وظالم
ونبدي له الشكوى وندعوه في الدجى ... فليس لنا من دونه في العوالم
نصير فينكي كل من حاد واعتدى ... علينا بلا جرم يُبعدّ لناقم
سوى أننا ندعو إلى الله من جفا ... وحاد عن المنهاج من كل آثم

وقد نظم شروط لا إله إلا الله وما يضادها فقال:

لسبعة الشروط في الشهادة ... حتم علينا قول ذي الإفادة
علم ينافي الجهل واليقين ... إذا نفى للشرك يا فطين
كذلك القبول إن نفى للرد ... والانقياد رابع في العد
هو المنافي الشرك إخلاص الفتى ... إذا نفى للشرك فافهم يا فتى
والصدق أيضاً المنافي للكذب ... محبة تنفي لضد فاحتسب

وربما دعت الأحوال إلى الاستنجاد والاستجداء بأهل الكرم فتزج لهم القصائد بالثناء وإظهار المحاسن فقد قال:

إلى الأماجد أهل الفضل والكرم تزجي المطي من السزوراء والعلم

قصيدة بعث بها إلى الملك عبد العزيز لا ندري ما تاريخها غير أن الملك عبدالعزيز كتب إلى عبد الرحمن بن شبيب وجماعته بتاريخ ١٣٣١هـ قال بعد ذلك: من طرف إسحاق بن الشيخ حمد يذكر لنا أنكم ها لزمان كاتبين عليه في الجهاد وأنتم خابرين أن ها لحموله ما يخصهم من ها لأمور ولا يكتب عليهم شيء حنا نعطيهم من حلالنا ونأخذ خواطرهم في كل حال وأنتم لا تعارضوهم في جميع نوايبكم وما يرد عليكم لا لقليل ولا لكثير والعاقل اللي يخاف الله يحترمهم ويوقرهم في جميع الأمور، هذا والسلام.

ظل الشيخ إسحاق بالعمار مقيماً مكباً على العلم وتحصيله فكان من نتاج ذلك شرحه لكتاب التوحيد شرحاً مختصراً - وهو الذي بين يدي القارئ - همشه على كتاب التوحيد، ثم نقله ابنه محمد فكتبه بخط جيد، وعلى المخطوطتين اعتمدنا طبعه ورسمه.

أنجب له من الأبناء سعد المولود سنة ١٣١٩هـ والمتوفى سنة ١٣٥٩هـ ومحمد المولود سنة ١٣١٥هـ و المتوفى سنة ١٣٦٠هـ خلف محمد ابنين هما الشيخ سعد بن محمد وعبدالعزيز، وهما عالمان فاضلان خريجا كلية الشريعة بالرياض، عمل الأول بالقضاء حتى مرتبة قاضي تمييز، والثاني في التعليم حتى توفاه الله.

وفي تقييم الكتاب ما يفيد القارئ عن شرح الشيخ إسحاق، وسنرفق صورة من المخطوطتين من بعض الصفحات بعد هذه الترجمة.

والله أعلم وصلى الله على محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - كتاب التوحيد

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح المصنف كتابه بالبسمله اقتداءً بالكتاب العزيز، وتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته وعملاً بحديث: كل أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع.

قوله: (كتاب التوحيد) سمي دين الإسلام توحيدا لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وربوبيته لا شريك له، وواحد في أسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ندَّ له.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. قال شيخ الإسلام: العبادة: هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل، ومعنى الآية: أن الله - تعالى - أخبر أنه ما خلق الجنَّ والإنس إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم.

قلت: وهي الحكمة الشرعية الدينية.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ الآية.

(الطاغوت): مشتق من الطغيان وهي مجاوزة الحد.

وأما معنى الآية: فأخبر - تعالى - أنه بعث في كل طائفة ﴿رَّسُولًا﴾ بهذه الكلمة، أي اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، أي اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ الآية، قال مجاهد: قضى: يعني وصى، وعن ابن عباس: يعني أمر. =

وقوله: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

= وقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ أي: وقضى أن تحسنوا بالوالدين كما قضى بعبادته وحده لا شريك له، وهذا دليل على تأكد حقهم، وأنه أوجب الحقوق بعد حق الله، وكثير في القرآن يقرن بين حقه ـ عز وجل ـ وبين حق الوالدين.

وقوله: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ الآيات، أي هلموا وأقبلوا، أتل أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحي وأمر من عنده أن لا تشركوا به شيئاً، قال: وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره: وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال في آخر الآية: ذالكم وصاكم به ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾: برهما وحفظهما وصيانتهما.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ أي: لا تقتلوا أبناءكم خشية العيلة والفقر.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ نهي عام عن جميع الفواحش، وهي: المعاصي.

وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الآية، وعن ابن عباس: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝﴾ أي: إن الله ـ تعالى ـ وصانا بهذه لنعقلها عنه ونعمل بها.

وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، قال مجاهد: التي هي أحسن التجارة فيه.

﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ. =

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليهـا خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية.

= وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، يأمر ـ تعالى ـ بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء.

(والقسط): العدل.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قـال ابـن كثير: أي: من اجتهد في أداء الحق، وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه، وبذل جهده فلا حرج عليه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، قـال ابـن جريـر: وبوصية الله [التي] وصاكم بها أوفوا، وانقادوا لذلك بأن تطيعوا فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتاب الله وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية، أي وصاكم به وبأن هذا صراطي.

قال: و(الصراط): الطريق الذي هو دين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾: مسـتويا قويماً لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان رسوله محمد ﷺ، وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار.

قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: تميل اهـ.

وعن ابن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعوا إليه»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية.

قوله: قال: ابن مسعود.. الخ.

قـال بعضهم: من أراد أن ينظـر إلى الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل فليقـرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، شـبهها بالكتاب الذي كتب، ثم ختم عليه فلم يزد فيه، ولم ينقص، فإن النبي ﷺ لعله لو وصّى لم يوص إلا بكتاب الله ـ تعالى ـ، وهذه الآيات وصية الله ـ تعـالى ـ ووصية رسوله ﷺ. =

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به»، قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» [اخرجاه في الصحيحين].

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه.

= قوله: «عن معاذ بن جبل» الخ .

قوله: «كنت رديف النبي ﷺ» إلخ، فيه تواضعه ﷺ لركوب الحمار، وجواز الإرداف على الدابة إذا كانت مطيقة.

قوله: «أتدري ما حق الله على العباد؟» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم، قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء، هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحقه المخلوق على المخلوق، قوله: «فقلت: الله ورسوله أعلم»، فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلفين.

قوله: «حق الله على العباد، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، أي يوحدوه بالعبادة، ولا يشركوا به شيئاً، فلا بد من التجرد من الشرك في العبادة، فإن من لم يتجرد من الشرك في العبادة لم يكن آتياً بعبادة الله، بل هو مشرك قد جعل لله نداً.

قوله: «وحق العباد» إلخ، ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة، لكن هو ـ سبحانه ـ أحق ذلك على نفسه، تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا في إراداتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحدٍ سواه، ولم يتقربوا بما يفعلونه، ويعملونه من الطاعات إلا إليه.

قوله: «أفلا أبشر الناس» فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره، «لا تبشرهم فيتكلوا»، أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة.

فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً: أي تحرجاً من الإثم.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون:٣].

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦] الآية.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل أولها النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأ الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝﴾ [الإسراء:٢٢] وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝﴾ [الإسراء:٣٩] ونبهنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عظم شأن هذه المسألة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ [النساء:٣٩].

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدأها الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله ـ تعالى ـ علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوبه الحمار مع الإرداف.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

٢ ـ باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله**

قوله: (باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) لما ذكر التوحيد ناسب أن يذكر فضله ترغيباً فيه وتحذيراً من ضده. ـ أي بيان فضل التوحيد، وبيان تكفيره الذنوب، قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية.

عن أبي بكر أنه فسرها بالشرك، فيكون الأمن من تأبيد العذاب، وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام، والاهتداء التام.

واللبس الخلط، أي الذين وحدوا الله، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝﴾ الآية.

و(الأمن): أمنان: أمن مطلق وأمن مقيد.

فالأول: الأمن من العذاب: وهو لمن مات على التوحيد ولم يصر على الكبائر.

والثاني: هو لمن مات على التوحيد مع الإصرار على الكبائر فله الأمن من الخلود في النار ففرق بين الأمن المطلق ومطلق الأمن.

قال الحسن: لهم الأمن في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا.

قال شيخ الإسلام: ليس مراد النبي ﷺ «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك ،الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن الأحاديث الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف إذ لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى الصراط وأصل نعمة الله عليهم، ولابد لهم من دخول الجنة.

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله» أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، وأن محمداً عبده ورسوله: أي وشهد أن محمداً عبد له مملوك ليس له من الربوبية والألوهية شيء، إنما هو عبد مقرب ورسول لا يكذب وأن عيسى عبد الله ورسوله، خلافاً لما=

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه و الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [أخرجاه].

ولهما من حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين

=تعتقد النصارى، أنه الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وخلاف ما تعتقده اليهود أنه ولد بغي، فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولون حتى يتبرأ منها جميعاً، ويعتقد ما قال الله فيه أنه عبد الله ورسوله.

قوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم»، قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ من روحه بأمر ربه، فكان عيسى بإذن الله «وروحاً منه»، أي وروحاً من الأرواح التي خلقها الله.

قوله: «وشهد أن الجنة حق» أي وشهد أن الجنة التي ذكرها الله حق «والنار حق» أي ثابتتين لا شك فيهما.

قوله: «أدخله الله الجنة» إلخ. في رواية: «من أي أبواب الجنة الثمانية شاء».

قوله: (ولهما من حديث عتبان).

قال شيخ الإسلام وغيره: هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها خالصاً من قلبه ومات عليها كما جاءت مقيدة، قال: فإن قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر.

وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق دون الاعتقاد وبالعكس، وفيه دليل على تحريم النار على أهل التوحيد الكامل.

قوله: (وعن أبي سعيد) الخ.

قوله «أذكرك» أي أثني عليك وأتوسل إليك به.

قوله: «كل عبادك» الخ، أي إني أريد شيئاً تخصني به.

قوله: «وعامرهن» أي ومن فيها من العمار، وأن السموات السبع والأرضين [لو] كنَّ حلقة لفصمتهن (لاإله إلا الله).
=

السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله» [رواه ابن حبان والحاكم وصححه].

وللترمذي وحسنه عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله ـ تعالى ـ: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك به شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه و بين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

= قوله: «مالت» أي رجحت، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله، الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة والدين، فمن قالها: بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك فهذه الحسنة لا يوازنها شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] الآية.

قوله: «لو أتيتني» الخ . قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ـ فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله ـ تعالى ـ فيه وقام بشروطه بقلبه ولسانه أوجب ذلك مغفرةً لما قد سلف من الذنوب، وفي الحديث كثرة ثواب التوحيد، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس، وقوله: في حديث عتبان: «يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترك الشرك لا قولها باللسان.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أن ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان .

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

٣ـ باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٩].

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني

قوله: (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، والبدع والمعاصي.

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، وصف إبراهيم بهذه الصفات، التي هي الغاية في تحقيق التوحيد.

الأولى: أنه كان أمة أي قدوة وإماماً معلماً للخير.

الثانية: قانتا لله، قال شيخ الإسلام: القنوت دوام الطاعة.

الثالثه: أنه كان حنيفاً. قال ابن القيم: المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه.

الرابعة: أنه ما كان من المشركين لصحة إخلاصه، وكمال صدقه، وبعده عن الشرك.

قلت يوضحه قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية.

وذكر ـ تعالى ـ عن خليله أنه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ [مريم:٤٨ ـ ٤٩] الآية. فهذا هو تحقيق التوحيد وهو البراءة من الشرك وأهله، واعتزالهم: الكفر بهم وعداوتهم وبغضهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها أنهم بربهم لا يشركون، ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح في إسلامه من شرك جلي أو خفي نفى عنهم ذلك، وهذا هو تحقيق التوحيد.

قوله: انقضّ: أي سقط.

قوله: البارحة يقال: لما قبل الزوال الليلة، وبعده البارحة.

قوله: «لم أكن في صلاة»، فيه فضل السلف وبعدهم عن الرياء. =

لدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة».

قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: **«عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»** ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله فأخبروه،

= قوله: «فما حملك على ذلك»، فيه طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: «لا رقية» الخ، قيل: لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة، وقد رقى النبي ﷺ ورقي.

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»، أي أخذ بما بلغه من العلم.

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس» الخ.

قوله: «عرضت علي الأمم» قيل: ليلة الإسراء.

قوله: «فرأيت النبي ومعه الرهط» الخ، فيه الرد على من احتج بالكثرة.

قوله: «إذ رفع لي سواد عظيم فقيل لي: هذا موسى وقومه» أي أتباعه على دينه.

قوله: «سبعون ألفاً» الخ، في حديث: «فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعون ألفاً».

قوله: «فخاض الناس في أولئك».

قوله: «هم الذين لا يسترقون» أي: لا يسألون غيرهم أن يرقاهم، «ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

قال ابن القيم: تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله؛ فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته، لا يدل على المنع منه، والثناء على تاركه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الإخبار والكراهة. =

فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله ان يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه ـ سبحانه ـ على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة، لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بالعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

= قوله: «ولايتطيرون» أي: لايتشاءمون بالطيور ونحوها، وسيأتي.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» ذكر الأصل الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله وصدق الالتجاء والاعتماد عليه بالقلب الذي هو نهاية تحقيق التوحيد، والحديث لا يدل على أنهم لايباشرون الأسباب أصلاً، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة توكلاً على الله كالاكتواء ولكونه سبباً مكروهاً، وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه فهذا غير قادح في التوكل.

قوله: فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فيه طلب الدعاء من الفاضل قال: «أنت منهم»، وفي رواية: «اللهم اجعله منهم».

قوله: «سبقك بها عكاشة» قيل: لم يكن عند الناس من الأحوال ما كان عند عكاشة فلذلك لم يجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك من كان حاضراً فيتسلسل الأمر، فسد الباب بقوله ذلك.

قال المصنف: «فيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ».

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ﷺ.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.

٤ ـ باب الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه؟ فقال: «الرياء».

قوله: (باب الخوف من الشرك) لما كان الشرك أعظم ذنب عصي الله به، لهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة، ما لم يرتب على ذنب سواه من إباحة دم أهله وعدم مغفرته إلا بالتوبة منه.

نبه بهذه الترجمة أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويعرف أسبابه وأنواعه لئلا يقع فيه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ الآية، أي لا يغفر لعبدٍ لقيه وهو مشرك به، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

قلت: فتبين أن الشرك أعظم الذنوب، وهذا يوجب شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله لأنه أقبح الذنوب، وأظلم الظلم، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: واجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام، دعا بذلك لأن أكثر الناس فتنوا بها كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قال التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم. فهذا يوجب الخوف من الشرك.

قوله: «أخوف» إلخ. هذا من شفقته ﷺ على أمته فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على الصحابة مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب.

=

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار» [رواه البخاري].

ولمسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار».

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

= قوله: «من مات وهو يدعو لله نداً» الخ، أي يجعل لله نداً في العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار، واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:

الأولى: أن يجعل لله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من أنواع الأصغر، كقول الرجل: (ما شاء الله وشئت ولو لا الله وأنت) ويسير الرياء.

قوله: «من لقي الله لا يشرك به» الخ، قال القرطبي: أي من لم يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على ذا فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحن، وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ويخلد في النار أبد الآباد، وهذا معلوم من الدين مجمع عليه بين المسلمين.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به إذا لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها، دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة فإن عفى عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذب في النار ثم أخرج إلى الجنة.

السابعة: أن من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

العاشرة: فيه تفسير «لا إله إلا الله» كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

٥ - باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك

قوله: (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) لما ذكر التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الآية.

قال ابن جرير: قل: يا محمد هذه الدعوة: التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون ما سواه من الآلهة، ﴿سَبِيلِىٓ﴾ طريقي، يعني أدعو إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وعلم مما أدعو به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتبعني.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك، لست منهم ولا هم مني.

قوله: «تأتي قوماً من أهل الكتاب»، وإنما نبهه ليستعد لمناظرتهم.

قوله: «فليكن أول» الخ، فيه دليل على أن التوحيد أول واجب افترض؛ ولهذا كان أول ما دعت الرسل إليه.

قوله: «خمس صلوات» الخ، فيه دليل على أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين.

قوله: «افترض عليهم صدقة» الخ، فيه أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء فترد على الفقراء وإنما خص الفقراء؛ لأن حق الفقراء آكد من حق بقية الأصناف. =

وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [أخرجاه].

ولهما عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»**، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: **«أين علي بن أبي طالب؟»** فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: **«انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ـ تعالى ـ فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً**

= قوله: «إياك وكرائم أموالهم»، هي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً، وفيه دليل على أنه يحرم أخذ خيار المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال، بل من أوساطه الوسط فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

قوله: «واتق دعوة المظلوم» الخ أي: اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم، وفيه التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: «ليس بينها وبين الله حجاب» أي: لا تحجب عن الله.

قوله: «لأعطين الراية» الخ: هو العلم الذي يتخذ في الحرب.

قوله: «يحب الله» الخ، قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختص بعلي، ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله.

قوله: «يفتح الله على يديه» الخ، فيه صريح البشارة، فهو علم من أعلام النبوة.

قوله: «فبات» الخ، أي: فيمن يدفعها إليه، وفيه حرص الصحابة على الخير.

قوله: «فقيل هو يشتكي عينيه» أي: من الرمد.

قوله: «فبصق» أي: تفل.

قوله: «فدعى له» فبرئ، أي: عوفي في الحال كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر.

قوله: «انفذ» أي امض، «على رسلك» على رفقك من غير عجلة، وساحتهم فناء أرضهم وما حولها.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، وترك الشرك، وهو معنى شهادة أن لا إله إلاالله وأن محمداً رسول الله، ومن هذا الوجه طابق=

خيرٌ لك من حمر النعم» يدوكون: أي يخوضون.

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله ـ تعالى ـ عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى «أن يوحدوا الله»: معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا

=الحديث الترجمة.

قوله: «أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ـ تعالى ـ فيه» أي: في الإسلام، أي إن أجابوك فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوق الله التي لا بد من فعلها كالصلاة والزكاة ـ وحاصله: أنهم إذا أجابوك إلى الإسلام، الذي هو التوحيد فأخبرهم بعد ذلك بما يجب عليهم من حق الله ـ تعالى ـ في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، فإن أجابوا لذلك ـ فقد أجابوا للإسلام، وأن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باقٍ بحاله، فدل على أن النطق بالشهادتين دليل على العصمة لا أنه عصمة.

قوله: «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» أي خير لك من الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب، قال النووي: وتشبيه أمور الدنيا بأمور الآخرة إنما هو تقريب إلى الأفهام وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها، وفيه فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد.

يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «**لأعطين الراية**»، الخ علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً.

الحادية والعشرون: فضيلة علي - رضي الله عنه -.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر؛ لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «**على رسلك**».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «**أخبرهم بما يجب**».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

٦ ـ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧].

(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) العطف لتغاير اللفظ، والا فالمعنى واحد.

بين ـ رحمه الله ـ في هذا الباب، أنه ليس اسماً لا معنى له أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والجاهل: يظن أن معنى لا إله إلا الله الخالق المتفرد بالملك، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وهذا هو معنى الكفر بالطاغوت، وهو معنى لاإله إلا الله، والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد وإفراد الله بالعبادة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية. يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير: يقول الله ـ تعالى ـ: قل للمشركين: ادعوا الذين زعمتم من دونه من الأنداد، وارغبوا إليهم فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا أن يحولوه إلى غيركم فإن الذي يقدر على ذلك هو الله ـ سبحانه ـ وحده لا شريك له، وفي التفسير المنسوب إلى الطبري الحنفي قل: للمشركين يدعون أصنامهم دعا استسقاء فلا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا إلى غيرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الملائكة المعبودة لهم يبادرون إلى طلب القربة إلى الله فيرجون رحمته ويخافون عذابه.

قال شيخ الإسلام: فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة أو يرجو رحمته ويخاف عذابه، فقد نهى الله ـ تعالى ـ عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ويحولونه من موضع إلى موضع كتغير حقيقته أو قدره، فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله، هو ترك ما=

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [الزخرف:٢٦ ـ ٢٧].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة:٣١].

=عليه المشركون من دعوة الصالحين والاستشفاع بهم إلى الله.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝﴾ الآية. قال ابن كثير: يقول تعالي: مخبراً عن عبده ورسوله وخليله أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾ أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم.

قلت: فتبين أن معنى لا إله إلا الله توحيده بالإخلاص في العبادة له، والبراءة من عبادة كل ما سواه.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: العلماء، والرهبان: العباد، فظهر أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله الله فقد اتخذه ربا ومعبوداً، وجعله لله شريكاً، وذلك ينافي التوحيد، الذي هو دين الله، فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع ربا ومعبوداً كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝﴾ [الأنعام:١٢١]، وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة قوله: شرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب.

قلت: فيه تبيين التوحيد وتوضيح معنى لا إله إلا الله، وفيه أيضاً بيان أشياء كثيرة من الشرك الأكبر والأصغر، وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع بانتفائه مما تركه من مضمون لا إله إلا الله، فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى لا إله إلا الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبعدها يتبين الأشياء، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الأكبر المنافي للتوحيد، أما الأصغر فإنه ينافي كماله، ومن اجتنبه فهو الموحد حقاً، وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها لتجتنب: تعرف الغايات التي نهي عن الوسائل لأجلها فإن الأصل اجتناب ذلك كله مستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام.

قلت: مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذي=

وقولـه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ـ عز وجل ـ».

=يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

قولـه: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية، المراد بالظلم: هنا الشـرك. فمن أحب الله وحـده وأحب فيه وله فهو مخلص، ومن أحبه وأحب معه غيره فهو مشـرك، وهذا مفهوم بيان أن لا إله إلا الله هو المألوه الذي تألهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة، قال شـيخ الإسلام: فمن يرغب إلى غير الله في قضاء حاجاته وتفريج كربه، لزم أن يكون محباً له ومحبته هي الأصل.

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله» فلم يكتفي باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

قـال المصنـف ـ رحمه الله ـ: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إلـه إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك: الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله أو دمه.

قلت: وأجمع العلماء على معنى ذلك، فلا بد في العصمة من الإتيان بالتوحيد والتزام أحكامه وترك الشرك.

قوله: «وحسابه على الله ـ عز وجل ـ» أي الله ـ سبحانه ـ الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقاً مـن قلبه جازاه، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم، فأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهراً وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

قوله: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب)، بمعنى أن ما يأتي بعد هذا الترجمة شرح للتوحيد وشـهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى ذلك، أن لا يعبد ولا يعتقد النفع والضر إلا في الله، وبعـد هذا بيان لأنواع العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله ـ تعالى ـ وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

وفيه مسائل:

وشرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب فيه، أكبر المسائل وأهمها: وهو تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبينها بأمور واضحة:

منها: آية الإسراء بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في غير المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه ـ السلام ـ للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر ـ سبحانه ـ أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الزخرف:٢٨].

ومنها: آية البقرة في الكفار الذي قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝﴾ [البقرة:١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟

ومنها: قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله».

وهذان أعظم ما يبين معنى: «لا إله إلا الله» فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

٧ ـ باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر:٣٨].

قوله: (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء ودفعه) لرفعه قبل حصوله؛ ودفعه [منعه] قبله ومن هنا ابتدأ المصنف تفسير التوحيد وشهادة «أن لا إله إلا الله» بذكر شيء من ما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأصغر والأكبر، فإن الضد لا يعرف إلا بضده فبدأ بالأصغر الاعتقادي انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية قال ابن كثير: أي لا تستطيع شيئاً من الأمر ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافي من توكل عليه، وعليه يتوكل المتوكلون كما قال هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٥٦] الآية.

قلت: حاصله أن الله ـ تعالى ـ أمر نبيه أن يقول للمشركين ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أي أخبروني عما ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾،

أي تعبدونهم وتسألونهم من الأنداد والأصنام والآلهة، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي بمرض أو فقر أو بلاء أو شدة ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي لا يقدرون على ذلك أصلاً ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي صحة وعافية وخير وكشف بلاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم فسكتوا لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها وإنما كانوا شفعاء يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ـ تعالى ـ لا أنهم يكشفون الضر ويجيبون المضطر فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النحل:٥٣ ـ ٥٤].

وقد دخل في ذلك كل من دعا من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين، ولبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه، فهذا وجه استدلال المصنف بالآيات.

وإن كانت الترجمة في الشرك الأصغر فإن السلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر كما استدل حذيفة وابن عباس. =

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة، فقال: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**» [رواه أحمد بسند لا بأس به].

وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»، وفي رواية: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

=قوله: «عن [عمران بن] حصين» الخ.

قوله: «ما هذا» يحتمل أن الاستفهام عن سبب لبسها.

قوله: «من الواهنة» عرق يأخذ بالمنكب أو في اليد كلها.

قوله: «انزعها» إلخ، النزع الجذب بقوة، أمره بطرحها عنه، وأخبره أنها لا تنفعه بل تضره، وهذا والله يكون عقوبة له على شركه لأنه وضعها لدفع الواهنة فعوقب بنقيض مقصوده.

قوله: «لو مت» الخ، أي: لأنه مشرك والحالة هذه، والفلاح: الفوز والظفر.

قوله: عن عقبة بن عامر: «من تعلق تميمة» الخ، وهذا دعاء عليه، وفيه وعيد شديد لمن فعل ذلك فإنه مع كونه مشركاً فقد دعا عليه النبي ﷺ بنقيض مقصوده.

قوله: «من تعلق تميمة فقد أشرك» قال ابن عبد البر: لما اعتقد الذي علقها أنها ترد العين فقد ظن أنها ترد القدر، واعتقاد ذلك شرك.

قوله: «عن حذيفة» الخ: دخل حذيفة على مريض يعوده فلمس عضده فقال: ما هذا؟ قال شيء رقي لي فيه فقطعه وقال: لو مت وهي عليك ما صليت عليك.

فيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله، وأن إتلاف آلات المنكر واللهو جائزة وإن لم يأذن صاحبها.

قوله: وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ استدل حذيفة على أن تعليق الخيط مما ذكر شرك أي أصغر كما تقدم في الحديث، ففيه استدلال بما نزل من الأكبر على الأصغر.

ومعنى الآية: أن الله أخبر عن المشركين أنهم يجمعون بين الإيمان بالله أي بوجوده وأنه الخالق الرازق المحي المميت ثم مع ذلك يشركون به في عبادته.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، ففيه شـاهد من كلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: «لاتزيدك إلا وهناً».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

السابعة: التصريح بأن من علق شيئاً وكل إليه.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسـعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يسـتدلون بالآيات التي في الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

٨ ـ باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: «أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت».

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم شرك» [رواه أحمد وأبو داود].

قوله: (باب الرقى والتمائم) أي: في حكمها.

ولما كان الرقى على ثلاثة أقسام: قسم يجوز وقسم في جوازه خلاف لم يجزم المصنف بكونها من الشرك لأن في ذلك تفصيلاً، بخلاف لبس الحلقة والخيط فإن ذلك شرك.

قوله: «قلادة من وتر» أحد أوتار القوس «أو قلادة» ـ شك الراوي ـ ولأبي داود «ولا قلادة» بغير شك، والأولى أصح لاتفاق الشيخين عليها، وللرخصة في القلائد، إلا الأوتار، كما روى أبو داود: «اربطوا الخيل وقلدوها ولا تقلدوها بالأوتار».

قال أبو عبيد القاسم: كانوا يقلدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً؛ فعلى هذا يكون تقليد الإبل وغيرها الأوتار، وما في معناها لهذا المعنى حراماً بل شركاً لأنه من تعليق التمائم المحرمة.

قوله: «إن الرقى» الخ.

قال المصنف ـ رحمه الله ـ: الرقى: هي التي تسمى العزائم الخ يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركا هي التي يستعان فيها بغير الله وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ فهذا حسن جائز أو مستحب.

قوله: «فقد رخص فيه رسول الله من العين والحمة كما تقدم» وكذا رخص في الرقى من غيرها كما في صحيح مسلم: لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً.

قوله: «والتمائم» هي جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين وهذا منهي عنه، لأنه لا دافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته. =

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه» [رواه أحمد والترمذي].

«التمائم»: شيءٌ يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

و«الرقى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و«التولة»: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رويفع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى

= اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته فقال طائفة بجواز ذلك، وهو قول عبد الله بن عمر، وقالت طائفة: لا يجوز.

قلت: هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة:

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.

والثاني: سد الذريعة فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

قوله: «التولة» الخ.

قال الحافظ: بكسر المثناة وفتح الواو واللام: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر وكان من الشرك.

قوله: «من تعلق» الخ، التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل وبهما.

«وكل إليه» أي: من تعلق قلبه بالله وأنزل به حوائجه والتجأ إليه كفاه الله ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله وتمائمه وكله الله، إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب.

قوله: «فمن عقد لحيته» قيل: كانوا يفعلون ذلك في الحروب كانوا في الجاهلية يعقدون لحاهم=

برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريءٌ منه».

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» [رواه وكيع].

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من اختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود.

=وذلك من زي الأعاجم.

قوله: «أو تقلد» وتراً في عنقه أو عنق دابته «أو استنجى برجيع دابة أو عظم» أي بريء من فعله، بل هو بريء من الفاعل وفعله.

قوله: «من قطع تميمة» الخ فيه فضل قطع التمائم لأنها شرك.

قوله: «كانوا يكرهون التمائم كلها» الخ، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود كعلقمة والأسود وأبي وائل.

٩ـ باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ الآيات [النجم:١٩].

عن أبي واقد الليثي ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين،

قوله: (باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما) كبقعة وغار وعين وقبر ونحوها مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة، أي ما حكمه هل هو شرك أم لا، ومعنى: تبرك أي طلب البركة ورجاها واعتقدها.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ الآيات. كانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال، وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة، ومعنى الآية كما قال القرطبي: إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة أنفعت أو ضرت حتى تكون شركاً لله ـ تعالى ـ.

قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١] قال ابن كثير: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى فتختارون لكم الذكور.

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢] أي: جور وباطل فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفها، فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونها لله ـ تعالى ـ.

قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم: ٢٣] أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة.

ومطابقة الآية للترجمة: أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجون منها ببركتها وشفاعتها، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة من جملة فعل أولئك المشركين مع تلك، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلون من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك والله المستعان.

قوله: «عن أبي واقد» الخ.

ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» [رواه الترمذي وصححه].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

= قوله: «ينوطون» الخ أي يعقلون عليها أسلحتهم.

قوله: «الله أكبر»: تنزيهاً، «إنها السنن» أي: الطرق.

قوله: «قلتم والذي نفسي بيده» الخ شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل: بجامع أن الكل طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد، فتغير الاسم لا يغير الحقيقة.

وفي هذا الحديث من الفوائد أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله ـ تعالى ـ يقع في هذه الأمة فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة، بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية فأكثروا فعله واتخذوه قربة، ومنها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط فالمشرك مشرك، وإن سمى شركه ما سماه كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم تعظيماً ومحبة فإن ذلك هو الشرك وإن سماه ما سماه.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم» إلخ أي طريقهم وفيه علم من أعلام النبوة بحيث أنه وقع كما أخبر ﷺ.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم» فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود، أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسـرائيل لما قالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لهم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: إن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار في التنبيه على مسائل القبر أما «من ربك» فواضح، وأما «من نبيك» فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما «ما دينك» فمن قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ الخ.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشـرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه، لا يؤمن أن يكون في قلبه من تلك العادة، لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».

١٠ ـ باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض» [رواه مسلم].

قوله: (باب ما جاء في الذبح لغير الله) أي: من الوعيد وأنه شرك.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ الآية، قال مجاهد: النسك الذبح في الحج والعمرة، وعن سعيد: ذبحي، أي: في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

وجه مطابقة الآية للترجمة أن الله ـ تعالى ـ تعبد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك كما تعبدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادة، فإذا تقرب إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعل لله شريكاً في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾ قال شيخ الإسلام: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين إلى أن قال: وأجل العبادات البدنية الصلاة، وأجل العبادات المالية النحر، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها كما عرفه أرباب القلوب الحية، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن أمر عجيب، وكان ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر انتهى.

قوله: «عن علي بن أبي طالب» الخ.

قوله: «لعن الله» اللعن: البعد عن مظان الرحمة ومواطنها، والملعون: من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن الطرد، وهو الإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء. قال الشيخ: ما معناه إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يلعن من استحق اللعنة بالقول. =

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٨]. والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل وبلغه رسوله محمد ﷺ.

قوله: «من ذبح لغير الله» قال شيخ الإسلام: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا وإذا كان هذا المقصود فسواء لفظ به، أو لم يلفظ، وتحريم هذا فيه أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال: فيه باسم المسيح ونحوه، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه يحرم وإن قال: فيه باسم الله. ومن هذا الباب ما يفعله الجهال من الذبح للجن، ولهذا روي عن النبي ﷺ: «أنه نهى عن ذبائح الجن»، قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وقوله: «لعن الله من لعن والديه» أي أباه وأمه وإن علوا، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»، فإذا كان هذا حال المتسبب فما ظنك بالمباشر.

قوله: «لعن الله من آوى محدثاً»، قال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وبفتحها على الفاعل والمفعول، فعلى الكسر: من نصر جانياً، وبالفتح: هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون المعنى الإيواء فيه الرضا به، فإنه إذا رضي بالبدعة و أقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

قوله: «لعن الله من غير منار الأرض» علامات حدودها بأن يقدمها أو يؤخرها، وقال ﷺ: «من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»، وقال النووي: اتفق العلماء على تحريم اللعن: وهو في اللغة الطرد والإبعاد، وفي الشرع الإبعاد عن رحمة الله، ولا يجوز أن يبعد عن رحمة الله من لا يعرف حاله وخاتمة أمره معرفة قطعية فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحد بعينه مسلماً كان أو كافراً أو دابة إلا من علمنا بنص الشرع أنه مات على الكفر كأبي جهل وإبليس، وأما اللعن بالوصف فليس بحرام كلعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، وآكل الربا وموكله، والمصورين والكافرين والمنافقين ومن غير منار الأرض، وغيره مما جاءت به النصوص بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان.

قوله: «وعن طارق بن شهاب» الخ.

قوله: «دخل الجنة رجل في ذباب» أي من أجله قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ كأنهم تقالوا=

لهـم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شـيئاً، فقالـوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ـ عز وجل ـ، فضربوا عنقه فدخل الجنة» [رواه أحمد].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامســة: لعن من آوى محدثاً، وهو الرجل يحدث شـيئاً يجب فيه حق الله، فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

السادســة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك من الأرض، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

=ذلك وتعجبوا، فبين لهم النبي ﷺ ما صيّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يسـتحق هذا عليه الجنة ويستحق الآخر عليه النار.

قوله: «مر رجلان على قوم لهم صنم» الخ.

قوله: «قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار» في هذا بيان عظمة الشرك، ولو في شـيء قليل، وأنه يوجب النار، وفي هذا الحديث التحذير من الوقوع في الشـرك، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار، وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداءاً وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم، وفيه أن الرجل كان قبل ذلك مسلماً.

قوله: «وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله ـ عز وجل ـ» ففيه فضيلة التوحيد والإخلاص.

قال المصنف ـ رحمه الله ـ: وفيه معرفة قدر الشـرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصا من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين: كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرا لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»**.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

١١ - باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:] الآية.

وعن ثابت بن الضحاك - رضي الله عنه - قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من اعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فأنه

قوله: (باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله)، لا نافية ويحتمل أنها للنهي.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية. قال المفسرون: إن الله - تعالى - نهى رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار والأمة تبع له في ذلك، ثم إنه - تعالى - حث على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم وبني على التقوى، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله.

وكان الذين بنوه جاؤا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك، فسألوه أن يصلي فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فلما قفل نزل الوحي بخبر المسجد فبعث إليه فهدمه قبل قدومه.

ووجه مناسبة الآية للترجمة: أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاة فيه، وهذا قياس صحيح.

قوله: «عن ثابت» الخ.

قوله: «ببوانة» قيل: موضع في أسفل مكة ودون يلملم، وقيل: هضبة وراء ينبع.

قوله: «فهل كان فيها وثن» فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله ذكره المصنف.

قال: «فهل فيها عيد من أعيادهم»، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، وفيه سد الذريعة، وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «فأوف بنذرك» الخ، وهذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله أي في محل أعيادهم: معصية. =

لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» [رواه أبو داود وإسناده على شرطهما].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه اذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم؛ ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

= قوله: «فإنه لاوفاء لنذر في معصية الله».

دليـــل علـــى أن هذا نذر معصية لو وجد في المكان بعض الموانع، وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» قال في شرح المصابيح: يعني إذا أضاف النذر، قال: إن شفى الله مريضـــي فلله علي أن أعتق عبـــد فلان أو أتصدق بثوبه ونحو ذلك، فأما إذا التزم في الذمة شـــيئاً لا يملكه فيصبح نذراً مثاله: إن شـــفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة، وهو في ذلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإن شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته.

١٢ - باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

قوله: (باب من الشرك النذر لغير الله).

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ الآية، دلت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك طاعة لله ووفاء بما تقرب به إليه.

ووجه الدلالة على الترجمة: أن الله مدح الموفين بالنذر والله ـ تعالى ـ لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم، فمن فعل ذلك لغير الله تقربا إليه فقد أشرك.

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ الآية.

وجه الدلالة من الآية للترجمة: أن الله أخبر أن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين به إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه، فدل ذلك على أنه عبادة، ومن صرف شيئا من العبادة لغير الله فقد أشرك.

قوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» أي فليفعل ما نذر من طاعة الله، ومن نذر أن يعص الله فلا يعصه .

قد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية، وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله أو كفارة يمين.

١٣ - باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ [الجن:٦].

وعن خولة بنت حكيم - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من

قوله: (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله - تعالى -) الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه واعتصم واستجار به، وهي من العبادات التي أمر الله بها كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الآية، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾، فمن صرف من هذه العبادة شيئاً لغير الله فقد جعله شريكاً لله في عبادته ونازع الرب في الإلهية.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ على قول أن الإنس زادوا الجن باستعاذتهم بهم، ﴿رَهَقًا ۝﴾ أي إثماً وطغياناً وشراً، وعلى القول الثاني بالعكس، وزيادتهم للإنس رهقاً بإضلالهم وإغوائهم، وذلك أن الرجل من العرب إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

ووجه الدلالة من الآية للترجمة: أن الله - تعالى - حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية منها الاستعاذة بغير الله، وقال ملا علي قارئ الحنفية: لا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، وذكر الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٨] الآية، فاستمتاع الإنس بالجن في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجن بالإنس تعظيمه إياه واستعاذته به وخضوعه له.

قال المصنف: وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك.

«وعن خولة» الخ.

قوله: «بكلمات الله التامات» شرع الله لأهل الألم أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية=

منزله ذلك» [رواه مسلم].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

=من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا به وبصفاته: قال القرطبي: قيل: معناه الكلمات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر.

قوله: «من شر ما خلق» المعنى من شر كل مخلوق فيه شر لا من شر كل ما خلقه الله فإن الجنة والملائكة والنبيين ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

١٤ ـ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس:١٠٦ ـ ١٠٧].

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

قوله: (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره) قال شيخ الإسلام: الاستغاثة: هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون. قال غيره: الفرق بين الدعاء والاستغاثة، أن الاستغاثة: لا تكون إلا من المكروب.

قوله: «أو يدعو غيره» هذا هو دعاء المسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله فإن ذلك شرك كما سيذكره المصنف.

قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ الآية، قال ابن عطية: معناه: قيل لي ولا تدع فهو عطف على أقم، وهذا الأمر والخطاب للنبي ﷺ إذا كان هكذا فأحرى أن يحذر ذلك غيره، والخطاب خرج مخرج الحصر وهو عام للأمة. قال ابن جرير: يقول تعالى: «ولا تدع يا محمد دون معبودك وخالقك شيئاً، لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا ،يعني بذلك الآلهة»، يقول: «لا تعبدها راجياً نفعها، ولا تخف ضرها، فإنها لا تنفع ولا تضر ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾»، «يقول: من المشركين بالله ـ تعالى ـ».

قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية، أمر الله ـ تعالى ـ بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره، ممن لا يملك رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرها.

قلت: وفي الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده في جلب الرزق فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه، كما هو الواقع من عباد القبور ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي أخصلوا له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي على ما أنعم عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ أي: فيجازي كل عامل بعمله.

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية فنفى= =

ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٦].

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله».

سبحانه ـ أن يكون أحدٌ أضل ممن يدعو غيره، وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة، والآية تعم كل ما يدعى من دون الله، ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلال ممن عبد غير الله ودعاه حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم ولا إلى أن تقوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، أي لا يشعرون بدعاء من دعاهم، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، أي جاحدين له.

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ يبين ـ تعالى ـ أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده، فذكر ذلك ـ سبحانه ـ محتجاً عليهم في اتخاذ الشفعاء من دونه ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعني يفعل ذلك، ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله، فبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب المضطر إذا دعاه لذلك فقد أشرك شركاً أكبر من شرك العرب كما هو الواقع.

قوله: «روى الطبراني» الخ.

قوله: «منافق يؤذي المؤمنين» هو عبد الله بن أبي.

قوله: «قوموا بنا نستغيث» الخ أي لأنه يقدر على كف أذاه.

قوله: «إنه لا يستغاث بي» الخ فيه النهي بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ مما يقدر عليه في حياته وسد ذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه ـ تعالى ـ، وتحذيراً لأمته من وسائل الشرك، في الأقوال والأفعال. فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أموراً لا يقدر عليها إلا الله كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء، كالبوصيري والبرعي وغيرهما من الاستغاثة ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات ،وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجمع الغفير، فاعتقدوا الشرك بالله ديناً والهدى ضلالا فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد والله المستعان.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان بأنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد والتأدب مع الله.

١٥ ـ باب قول الله تعالى

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآيـة [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾ [فاطر: ١٣].

وفي الصحيح عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل‌عمران: ١٢٨].

(باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝﴾ الآية).

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي: في العبادة، وقال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف على المشركين في عبادتهم مع الله ـ تعالى ـ ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه، وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدون من دون الله.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾ الآية، يخبر ـ تعالى ـ عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، وصفهم أنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو فنفى عنهم الملك، بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾ قال ابن عباس اللفافة: التي تكون على نواة التمر.

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] لأنهم ما بين ميت وغائب عنهم مشتغل بما خلق له، ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأن ذلك ليس لهم. فإن الله لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحدٍ منهم، لا استقلالا ولا واسطة كما تقدم.

قوله: وفي الصحيح عن أنس قال: «شج النبي ﷺ وكسرت رباعيته» الخ.

قوله: يوم أحد: جبل معروف كانت عنده الوقعة المشهورة.

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله. =

وفيه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العن فلانا وفلاناً» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني

= قوله: وفيه عن ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول الخ.

قوله وفي رواية: «يدعو على صفوان بن أمية» إلخ، إنما دعا عليهم رسول الله ﷺ لأنهم رؤساء المشركين يوم أحد، والسبب في تلك الأفاعيل التي جرت على سيد المرسلين، ومع ذلك فلم يستجب له، بل أنزل الله عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، فتاب عليهم، فآمنوا مع أنهم فعلوا شيئاً لم يفعله أكثر الكفار ولم يقدر النبي ﷺ أن يدفعهم عن نفسه ولا عن أصحابه فلو كان عنده من النفع والضر شيء لكان يفتك بهم، ما يستحقونه على هذه الأفعال.

قوله: وفيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: «قام رسول الله ﷺ حين نزل عليه» الخ.

قوله: «يا معشر قريش» المعشر الجماعة.

قوله: «اشتروا أنفسكم» أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به وطاعته، فإن ذلك ثمن النجاة والخلاص من النار، ورفع بقوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً» ما عساه يتوهمه بعضهم أن يغني عنهم من الله شيئا بشفاعته.

قوله: «يا عباس بن عبد المطلب» الخ، بين ﷺ أنه لا ينجيهم من عذاب الله ولا يدخلهم الجنة ولا يقربهم إلى الله، وإنما يقربهم إلى الله طاعته، ويدخلهم الجنة ويخرجهم من النار برحمة الله هو طاعة الله، وأما ما يقدر عليه من أمور الدنيا فلا يبخل بها عنهم، فإذا كان لا ينفع بنته وعمه وعمته وقرابته إلا بذلك فغيرهم أولى وأحرى.

فانظر إلى الواقع من كثير من الناس، من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيرهم، فتبين لك أنهم ليسوا على شيء لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون.

عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصد أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار منها شجهم نبيهم وحرصهم على قتله؛ ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل عليه في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾.

الثانية عشرة: جدُّه ﷺ بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب «**لا أغني عنك من الله شيئاً**» حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً**» فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه لا يقول ﷺ إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبين له التوحيد وغربة الدين.

١٦ - باب قول الله تعالى

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

وفي الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ

(باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الخ)، أراد المصنف - رحمه الله تعالى -: بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله - تعالى - وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله، وإذا كانوا لا يدعون مع الله - تعالى - لا استقلالا ولا واسطةً بالشفاعة فغيرهم أولى ألا يدعى ولا يعبد، فيه الرد على جميع فرق المشركين، الذين يدعون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم، وقد قال فيهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآيتين [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧].

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي زال عنهم الفزع إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره - تعالى - به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبةً.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا: ماذا خلق.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قالوا: قال الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ علوا القدر وعلو القهر وعلو الذات فله العلو الكامل من جميع الوجوه، الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه - تبارك وتعالى -.

قوله: «في الصحيح» أي صحيح البخاري.

قوله: «إذا قضى الله الأمر» أي: إذا تكلم الله بأمره الذي قضاه في السماء بما يكون.

قوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله» أي: لقول الله - تعالى -: كأنه سلسلة، أي كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان وهو الحجر الأملس.

قوله: «ينفذهم ذلك» أي: ينفذ ذلك القول الملائكة أي يخلص ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال عنها الخوف والغشي ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: =

ٱلۡكَبِيرُ﴿٢٣﴾﴾ فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتي يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

وعن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة ـ أو قال رعدة شديدة ـ خوفاً من الله ـ عز وجل ـ فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون**

=قال الملائكة بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ قالوا: قال الله الحق: علموا أنه لا يقول إلا الحق.

قوله: «فيسمعها مسترق السمع» أي يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين.

قوله: «فيسمع الكلمة» أي يسمع المسترق الفوقاني الكلمة من الوحي.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها»، الشهاب النجم الذي يرمى به، وهذا يدل على أن الرمي بالنجوم كان قبل المبعث.

قلت: قال معمر للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم قال: أرأيت ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ [الجن: ٩] الآية، قال: غلظت وشددت حين بعث رسول الله ﷺ.

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» أي يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من الإنس.

قوله: «فيقال»: الخ، لكونهم يصدقون بعض الأحيان فيما سمعوه من الوحي، وفيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولايعتبرون بمائة كذبة، وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق لا يدل على أنه حق كله، بل لا يدل على إباحته كما في الكاهن.

قوله: «وعن النواس الخ».

قوله: «إذا أراد الله ـ تعالى ـ أن يوحي بالأمر» فيه النص على أن الله ـ تعالى ـ يتكلم بالوحي.

قوله: «أخذت السموات منه رجفة» أي ارتجفت خوفاً من الله ـ عز وجل ـ، ظاهر بأن السموات تخافه بما يجعل الله فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها، وقد أخبر ـ تعالى ـ أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا =

أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ـ عز وجل ـ».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال: كذا وكذا.

= يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا سجداً» الصعوق: هو الغشي ومعه السجود.

قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»، معنى جبريل عبد الله، وفيه فضيلة جبريل كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، قال ابن كثير: إنه بتبليغ رسول كريم، قال أبو صالح: في الآية قال جبريل: يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن، ولأحمد: بسند صحيح عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ، جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدرر والياقوت ما الله به عليم، فإذا كان هذا عظم المخلوق فالخالق أعظم وأجل وأكبر.

قوله: «ثم ينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ـ عز وجل ـ»، في السماء والأرض هذا تمام الحديث، والآيات المذكورة في الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة وترجف منه المخلوقات الكامل في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته وملكه لا يجوز أن يُجعل له شريك في عبادته من خلقه.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات بكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضا.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

الرابعة عشـــرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يُصدّق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله ـ عز وجل ـ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

١٧ ـ باب الشفاعة

وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله: (باب الشفاعة) أي بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقة ما دل القرآن على إثباته.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهم المؤمنون.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾، قال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذٍ ولي ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به لعلهم يتقون فيعملون عملاً ينجيهم من عذابه يوم القيامة.

قلت: فنفى ـ سبحانه وتعالى ـ عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما هو دين المشركين، وليس في الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله، بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفعاء عن المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، وقبلها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ الآية: وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨] فبين في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف ممتنع، وأن اتخاذهم شفعاء شرك يتنزه الرب ـ تعالى ـ عنه.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكها، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل ما سواه.

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ قد بين فيما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي=

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢١ ـ ٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع

=نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله، وفي هذه الآية أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ۝﴾ [طه: ١٠٩]، فبين بأنها ما تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب ـ تعالى ـ للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه، وهو لا يرضى من الأقوال والأعمال إلا ما أريد به وجهه، ولقي العبد به ربه مخلصاً.

قوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، قال ابن كثير: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون، شفاعة هذه الأنداد عند الله.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيتين، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فإن المشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالكاً لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى ـ سبحانه ـ المراتب الأربع نفياً مرتباً؛ منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى؛ فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشركون، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، ثم قال: ومن أنواعه: أي الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، وهذا أصل الشرك في العالم، إلى أن قال: وما نجا من هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده، وعادى المشركين، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده.

قوله: «قال أبوالعباس»، هو أحمد ابن تيمية إمام المسلمين «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون» الخ.

ساق كلام شيخ الإسلام: فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب، وقد عرف الإخلاص، فقال: محبة الله وحده وإرادة وجهه. =

إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون أنها لهم هي منتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ـ لا يبدأ بالشفاعة أولاً ـ ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه».

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص ـ بإذن الله ـ ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقته أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص، انتهى كلامه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

=وقال ابن القيم: في معنى حديث: «أبي هريرة»: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين، أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذٍ يأذن الله للشافع أن يشفع.

١٨ ـ باب قول الله تعالى

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] الآية.

في الصحيح عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه

قوله: (﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)، أراد المصنف ـ رحمه الله ـ: الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكروب وهداية القلوب وغير ذلك، فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية، ومن نزلت فيه تبين بطلان قولهم وفساد شركهم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال ابن كثير: يقول الله لرسوله: إنك يا محمد! ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، والمنفي هنا هداية التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه، وأما الهداية المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله، والدال على دينه وشرعه.

قوله: في الصحيح «عن ابن المسيب عن أبيه» الخ.

قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة» أي: علاماتها ومقدماتها، «جاء رسول الله ﷺ» يحتمل أن المسيب حضر مع الاثنين فقال: «يا عم قل: لا إله إلا الله» أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها بعلم ويقين فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام.

قوله: «كلمة أحاج لك بها عند الله» من المحاجة والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال. وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات تنفعه.

وقوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟» ذكراه الحجة الملعونة التي احتج بها المشركون=

النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

الثانية: تفسير: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾.

الثالثة: وهي المسألة الكبرى: تفسير قوله: «قل لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه

=على المرسلين، كقول فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا» الخ، فيه معرفتهم لمعنى «لا إله إلا الله» وأن أبا طالب لو قالها: لبرىء من ملة عبد المطلب، فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في الإلهية، ومن حكمة الرب ـ تعالى ـ في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضل خلقه من هداية القلوب وتفريج الكروب والنجاة من النار ونحو ذلك شيء؛ لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره.

قوله: «فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله» فيه تأكيد من نفي وقوع ذلك من أبي طالب، قال المصنف: وفيه الرد على زعم إسلام أبي طالب.

قوله: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبي طالب.

قوله: فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ الآية أي: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبر بمعنى النهي، وقوله: ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ظاهره في أنه مات على غير الإسلام، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى.

من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل لا إله إلا الله» فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشـرة: التأمل في كبر هذه الشـبهة في قلوب الضالين، لأن القصة أنهم لـم يجادلوه إلا بها، مع مبالغتـه ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

١٩ ـ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

في الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: ٢٣]، قال: «هذه أسماء رجال صالحين، من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم:

قوله: (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) أراد المصنف ـ رحمه الله ـ بيان ما يؤول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلهية.

قوله: وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الآية، الغلو: هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي: لا ترفعوا المخلوق فوق منزلته التي أنزله الله فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيرًا لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير، ولهذا قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلها، وضاهى النصارى في شركهم، وضاهى اليهود في تفريطهم، فإن النصارى غلوا في عيسى، واليهود عادوه وتنقصوه، فالنصارى أفرطوا، واليهود فرطوا.

وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥]، ففي هذه الآية الرد على اليهود والنصارى، قال شيخ الإسلام: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود و النصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم. قال: وعلي ـ رضي الله عنه ـ: حرق الغالية من الرافضة، واتفق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتلهم.

قوله: «وفي الصحيح» عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ الآية: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد»، أما ﴿وَدّٗا﴾ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما ﴿سُوَاعٗا﴾ لهذيل، وأما ﴿يَغُوثَ﴾ فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما ﴿يَعُوقَ﴾ فكانت لهمدان، وأما ﴿وَنَسۡرٗا﴾ فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين في قوم نوح. =

أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت».

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: قال غير وا حد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»** [أخرجاه].

وقال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».**

=قوله: «حتى إذا هلك أولئك» أي: الذين صوروا تلك الأصنام، «ونسي العلم»، أي: درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل، فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله، «عُبدت» لما قال لهم إبليس: إن من كان من قبلكم كانوا يعبدونهم يستسقون، فهو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها، فصار هو معبودهم في الحقيقة كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [يس: ٦٠].

وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك، وإن كان القصد بها حسن، فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك؛ في عبادتهم لهم من دون الله.

قوله: «وقال ابن القيم:» قال: غير واحد من السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم» إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم، قبل تصويرهم تماثيلهم، وذلك من وسائل الشرك، لأن العكوف لله في المساجد عبادة، فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة لها.

«ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» وسبب تلك العبادة ما جرى من الأولين من التعظيم في العكوف على القبور، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله.

قوله: «عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني» إلخ، الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

قوله: «إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى، فادعوا فيه الألوهية «فإنما أنا عبد الله ورسوله» فصفوني بذلك كما وصفني ربي.

قوله: قال رسول الله ﷺ: «إياكم» الخ، ذكره المصنف بدون ذكر رواته، وقد رواه أحمد،=

ولمسلم عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً.

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غير به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل:

فالأول: محبة الصالحين.

والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

=وهذا اللفظ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «هلم القط لي»، فلقطت له حصيات هن حصى الخذف، فلما وضعتهن في يده قال: «نعم بمثل هؤلاء وإياكم والغلو»، قال شيخ الإسلام: وهذا عام في الدين الحديث في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال وسبب هذا اللفظ العام: رمي الجمار؛ وهو داخل فيه، ومثله الرمي بالحجارة الكبار، بناءً على أنه أبلغ من الصغار.

وقوله: ولمسلم عن ابن مسعود قال: «هلك المتنطعون»، قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعينهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم، ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال.

قيل: المتنطعون في البحث والاستقصاء، وقيل: المتعمقون المتكلمون بأقصى حلوقهم.

وقال النووي: فيه كراهة التقعر في الكلام بالشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم، قالها ثلاث مرات مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

الثامنة: أن فيه شاهداً لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني» الخ، ـ فصلوات الله وسلامه عليه ـ بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

٢٠ - باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها -: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح - أو العبد الصالح - بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**» فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل.

ولهما عنها - رضي الله عنها - قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود**

(باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟) أي: الرجل الصالح؛ فإن عبادته هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر، وهو أعظم الذنوب.

قوله: «في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة، الكنيسة: معبد النصارى.

قوله: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح» شك من بعض رواة الحديث.

قوله: «صوروا فيه تلك الصور» الإشارة إلى ما ذكرت من التصاوير.

قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»، وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن من فعل ذلك.

قوله: «فهؤلاء جمعوا» الخ، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ذكره المصنف كتنبيه على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور، كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قوله: «ولهما عنها أي عن عائشة قالت: لما نزل، أي نزل به ملك الموت برسول الله ﷺ طفق أي جعل، قوله: خميصاً، أي كساءً له أعلام».

قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا» الخ، يبين أن من فعل مثل ذلك حلّ عليه من اللعنة ما حلّ على اليهود والنصارى. =

والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً» يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً [أخرجاه].

ولمسلم عن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا، لا تخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فاني أنهاكم عن ذلك».

=قوله: «يحذر ما صنعوا» هذا من كلام عائشة. ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، ومحادة الله ورسوله.

قوله: «غيرأنه خشي أن يتخذ مسجداً» أي: فلم يبرزوه خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً أو تعظيماً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعنه فاعله.

قوله: «ولمسلم عن جندب» إلخ.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلاً» أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله، والخلة: فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب، مشتق من الخلة، بفتح الخاء وهي تخلل المودة في القلب، قال القرطبي: وانما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه، ومعرفته فلا يسع خلة غيره.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلاً» فيه بيان الخلة فوق المحبة. قال ابن القيم: وأما ما يظنه أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله؛ ومحمد حبيب الله، فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة.

قوله: «ولوكنت متخذاً» الخ، فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة، وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع.

قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»، قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم يخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. =

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مســجد، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مســجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً».

ولأحمد بســند جيد عن ابن مســعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إن من شــرار الناس من تدركهم الســاعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مســاجد» [رواه أبو حاتم في صحيحه].

= والأول: هو الشرك الجلي، والثاني: هو الشرك الخفي، فلذلك استحقوا اللعنة.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» كما في حديث جندب. وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

وقوله: «ثم إنه لعن» وهو في السياق من فعله كما في حديث عائشة.

قولــه: «والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبن مســجدا»، أي: من اتخاذ المســاجد الملعون فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

قولــه: «فــإن الصحابة لم يكونوا» الخ، أي: لما علموا من تشــديده في ذلك وتغليظه ولعن فاعله.

قوله: «وكل موضع قصدت» الخ أي: وإن لم يبن مســجد، بل كل موضع يصلى فيه يســمى مسجد، وإن لم يقصد بذلك، ذلك الموضع بخصوصه، فصار بالصلاة فيه مسجد.

قوله: كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض» الخ، أي تجوز في كل بقعة منها إلا ما اســتثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة ونحوها.

قوله: «ولأحمد بســند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً»: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة» الخ.

قوله: «من شرار الناس» جمع شرير.

قوله: «من تدركهم الساعة»، مقدماتها كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» أي: وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد=

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه، عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان النزع لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذه مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة

=أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها. والعجب أن أكثر من يدّعي ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك! بل ربما استحسنوه ورغبوا فيه، فلقد اشتدت غربة الإسلام.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعةً للأحاديث الصحيحة، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك تتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ.

والجهمية، وبســبب الرافضة حدث الشــرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

٢١ ـ باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ: أن رسـول الله ﷺ قال: «اللهـم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولا بن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝﴾ [النجم:١٩]، قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره.

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله).

أراد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: بهذه الترجمة أمور:

الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين.

والثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها، والأوثان: هي المعبودات التي لا صورة لها كالقبور والأشجار والأحجار ونحوها.

قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» وقد استجاب الله دعاءه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت إرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله ـ تعالى ـ إذا أريد تغيير شيء من ذلك أنف عبادها واشمأزت قلوبهم، وقالوا: تنقصون أهل الرتب العالية ورموا بالعظائم. فماذا يقولون؟: لو قيل: لهم إنها أوثان تعبد من دون الله، فالله المستعان على غربة الإسلام.

قوله: «اشتد غضب الله» الخ، فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

قوله: «ولابن جرير بسنده عن سفيان» الخ.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝﴾ قال: «كان يلت السويق لهم فمات فعكفوا على قبره».

وفي رواية: «فيطعم من مر عليه من الناس، فلما مات عبدوه»، وقالوا: هو اللات، ومناسبته=

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» [رواه أهل السنن].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي أهمها معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

=للترجمة: أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه، وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

قوله: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور» إلخ، أي من النساء، وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن.

وقيل: في تعليل ذلك أنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة.

قوله: «والمتخذين عليها المساجد»، وتقدمَ في الباب الذي قبله.

قوله: (السرج)، هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور. قال أبو [محمد] المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة؛ وإفراطاً في القبور أشبه تعظيم الأصنام.

وقال ابن القيم: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر.

٢٢ ـ باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» [رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات].

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)، الجناب: هو الجانب: والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ لآية، قال ابن كثير: يقول الله ـ تعالى ـ ممتناً على المؤمنين لما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية، أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ولهذا جاء في الحديث أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسوله ﷺ في حق أمته، أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، كما سيأتي في الباب.

قوله: «وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ» الخ.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً».

قال شيخ الإسلام: أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور.

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر: «لا تجعلوا بيوتكم، قبوراً فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

قوله: «لا تجعلوا قبري عيداً»، قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: العيد ما يعتاد مجيئه=

وعن علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» [رواه في المختارة].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته، في الصلاة والسلام عليه.

=وقصده زماناً ومكاناً؛ مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإذا كان اسما للمكان، فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتسابه للعبادة وغيرها.

قوله: «وصلوا علي» الخ، قال شيخ الإسلام: يشير إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة إلى اتخاذه عيداً.

«وعن علي ابن الحسين إلى آخره» الخ.

قوله: «رأى رجلاً يجيء إلى فرجة»، هي الكوة في الجدار.

قوله: «فيدخل فيها فنهاه»، هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

٢٣ ـ باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

(قولـه: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثـان)، الوثن: كل ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله ـ تعالى ـ من القبور والمشاهد وغيرها.

أراد المصنف بهذه الترجمة: الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك، يقولون: لا يقع في هذه الأمة المحمدية، وهم يقولون: «لا إله إلا الله محمد رسـول الله» فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ما يدل على وقوع الشرك في هذه الأمة، ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان، وإن كان طائفة منها لاتزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

قولـه: وقول الله تعالـى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ أي أعطوا، ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾، يقـول ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ أي: أعطوا نصيبـاً أي حظـاً، ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشـرف إلـى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهـل العلم، فأخبرونـا عنا ومحمد، فقالوا: ما أنتم ومحمـد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسـقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسـقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا، وتبعه سـراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سـبيلاً، فأنـزل الله تعالـى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: الجبت: السحر، الطاغوت: الشيطان.

وعن ابن عباس: الجبت: الشـيطان، وعنه: الأصنام، وعنه: الجبت: حيي بن أخطب، وعن الشعبي، الجبت: الكاهن.

قال الجوهري: الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

قـال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفيه معرفـة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الوضع هل هو اعتقاد قلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها، ومعرفة بطلانها». =

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» [أخرجاه].

ولمسلم عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي

=قوله: وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ يقول الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ قل: يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة، مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته. ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ والقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى.
﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت أي: أطاع الشيطان فيما سوّل له.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾، المراد: أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله، لأن النبي ﷺ «لعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» أراد تحذيراً لأمته أن يفعلوا فعلهم.

قوله: وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ الخ.

قوله: «سنن» أي طريق من كان قبلكم «حذو القذة بالقذة» والقذة واحدة القذذ وهي: ريش السهم، أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوا، وتشبهوهم في ذلك، كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى. «حتى لو دخلو جحر ضب لدخلتموه» أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته، ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

قوله: «فمن؟» إي: فمن هم غير أولئك.

قوله: «ولمسلم عن ثوبان الخ».

قوله: «زوى لي الأرض» قيل: وحاصله أن الله طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة=

الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

=كف في مرآة ينظره، قال الطيبي: أي جمعها حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها، «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»، وكان ذلك من دلائل النبوة؛ فإن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصفد؛ ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال.

قوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» وعبر الأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم الذهب. وعبر بالأبيض عن كنز كسرى، أن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، ووجد ذلك في خلافة عمر.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة بعامة»، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط سنة، ويجمع على سنين.

قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم» أي: من غيرهم من الكفار، «فيستبيح بيضتهم» قيل: بيضة كل شيء معظمه.

قلت: وإن الله ـ تعالى ـ لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً».

قوله: «وإن ربي قال يا محمد، إذا قضيت قضاءً» أي إذا حكمت حكماً فإنه لا يرد.

قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً» أي حتى يوجد ذلك منهم فإن وجد فإنه يسلط من الكفار فيستبيح جماعتهم وإمامهم ومعظمهم لا كل الأمة، ثم تكون العاقبة لهذه الأمة إن رجعوا عما هم فيه من الأسباب الموجبة للتسلط، وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم. =

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تبارك ـ وتعالى» .

=قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، أراد الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلوهم.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»، وكذلك وقع، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ لم يرفع؛ وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، وقد يكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

وقوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين» الخ، واحد الأحياء وهي القبائل، والمعنى أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ولحوقهم بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»، الفئام: الجماعات الكثيرة، وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور.

قوله: «وأنه سيكون في أمتي إلى آخره»، ليس مراد الحديث من ادعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم، ينشأ عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدى له شبهة، وقد أهلك الله ـ تعالى ـ من وقع له منهم ذلك ويبقي منهم من يلحق بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

وقوله: «وأنا خاتم النبيين» يعني أنا آخر النبيين، وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل أمته.

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة» الخ، قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟، قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز جماعتهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض.

قال المصنف: وفيه الآية العظيمة، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة أن الحق لا يزول بالكلية.

قوله: «حتى يأتي أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ» الظاهر أن المراد ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة؛ ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء .

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت، في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها.

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة، أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدعي النبوة مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه أنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق.

وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، قد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم - مع قلتهم - لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة. منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع

الثالثة، وإخباره بوقوع السـيف وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسـبي بعضهم بعضاً، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصره الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

٢٤ ـ باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان».

وقال جابر ـ رضي الله عنه ـ: «الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد».

(قوله باب ما جاء في السحر)، السحر: في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحرا» إنما كان السحر من أنواع الشرك، إذ لا يتأتى السحر بدونه، ولهذا جاء في الحديث: «ومن سحر فقد أشرك» أدخله المصنف في كتاب التوحيد، ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك، قال أبو محمد المقدسي: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان؛ فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء زوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وقد زعم قوم أن السحر تخييل لا حقيقة له، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل منه ما هو تخييل، ومنه ما له حقيقة كما يفهم مما تقدم، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ الآية.

قال ابن عباس: من نصيب، وقال الحسن: ليس له دين، فدلت الآية على تحريم السحر، وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وفيه أن السحر من الجبت.

قوله: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

قال جابر: الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد، والحي القبائل، أي في كل قبيلة من قبائل العرب، يتحاكمون إليه ويسألونه عن المغيبات. ومطابقة هذه الآية للترجمة ظاهر من جهة أن الساحر طاغوت من الطواغيت إذ اكان هذا الاسم يطلق على الكاهن، فالساحر أولى لأنه شر وأخبث. =

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الرباء، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وعن جندب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «حد الساحر ضربة بالسيف» [رواه الترمذي]، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: «كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، قال: «فقتلنا ثلاث سواحر».

= قوله: «عن أبي هريرة» الخ.

قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات»، أي المهلكات، وسميت هذه الكبائر موبقات، لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

قوله: «الشرك بالله»، هو أن يجعل لله نداً يدعوه أو يرجوه، أو يخافه، كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصي الله به.

قوله: «السحر»، هذا وجه إيراد المصنف: لهذا الحديث في هذا الباب.

قوله: «وقتل النفس»، أي التي حرم قتلها، «إلا بالحق» بأن تفعل ما يوجب قتلها.

«وأكل الربا» أي: تناوله بأي وجه كان.

«وأكل مال اليتيم» يعني التعدي فيه.

«والتولي يوم الزحف» الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال.

«وقذف المحصنات الغافلات» الخ، المراد الحرائر العفيفات رميهن بزنا أو لواط، والغافلات، أي: عن الفواحش، وما رمين به، فهو كناية عن البريئات لأن الغافل بريء عما بهت به.

«والمؤمنات» بالله احتراز عن قذف الكافرات فإنه من الصغائر.

قوله: «وعن جندب» الخ.

قال المصنف: وفيه أنه يقتل ولا يستتاب، وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر، ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر، والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل الناس به في خلافته من غير نكير.

وصـــح عن حفصة ـ رضي الله عنهـــا ـ أنها أمرت بقتل جارية لها ســـحرتها، فقتلت، وكذلك صح عن جندب، قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: إنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده!

٢٥ ـ باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت».

قال عوف: العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط بالأرض، الجبت: قال الحسن: رنة الشيطان، إسناده جيد، ولأبي داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه المسند منه.

قوله: (باب بيان شيء من أنواع السحر).

قلت: ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ ههنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال، وظنو أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب: [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] فراجعه.

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا عوف إلخ.

قوله: قال عوف: «العيافة»: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها؛ وهو من عادة العرب.

قوله: «والطرق» الخط يخط بالأرض، قال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء.

قوله: «من الجبت» أي: السحر، قال القاضي: والجبت: في الأصل الفشل، الذي لاخير فيه ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر وللسحر.

قوله: قال الحسن: «رنة الشيطان».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما فتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت عليه جنوده. وروى الحافظ في المختارة: الرنين: الصوت.

قوله: «ولأبي داود، وابن حبان في صحيحه» الخ، فلم يذكر التفسير الذي فسره به عوف، وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن. =

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» [رواه أبو داود وإسناده صحيح].

وللنسائي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه».

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس» [رواه مسلم].

=قوله: وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم» الخ.

قوله: «شعبة» أي طائفة من علم النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر المحرم تعلمه.

قوله: «زاد ما زاد» أي: كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد بالإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، فإنما يعتقده في السحر باطل والله أعلم.

قوله: «وللنسائي» الخ.

قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»، اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، والنفث: هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل، وقد يساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي، قاله ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقوله: «من سحر فقد أشرك» نص في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك.

قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه» أي من تعلق قلبه شيئاً بحيث يعتمد عليه ويرجوه، وكله الله إلى ذلك الشيء. فمن تعلق على ربه وإلهه كفاه ووقاه وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير؛ ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك.

قوله: «وعن ابن مسعود» الخ،

قوله: «العضه» قال الزمخشري: أصلها «العضهة» فعلة من العضه وهو البهت، ثم فسره بقوله: «هي النميمة: القالة بين الناس»، فأطلق عليها «العضه» لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً، ذكره القرطبي.

وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس، قال في الفروع: وجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يؤثره السحر، وأكثر، فيعطى حكمه. وبه يظهر مطابقة=

ولهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرا».

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق والطيرة.

الثالثة: أن علم النجوم من أنواع السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن بعض الفصاحة منه.

=الحديث للترجمة، وهو يدل على تحريم النميمة وهو مجمع عليه.

قوله: ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرا» البيان: البلاغة والفصاحة، قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. قال ابن عبد البر: تأوله طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح، والأول أصح. والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله: «إن من البيان لسحرا» هذا من التشبيه البليغ لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، فيستميل به قلوب الجهال حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، نسأل الله الثبات والاستقامة على الهداية. وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه، فهذا هو الممدوح، وبالجملة فالبيان لا يمدح إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب وتغطية الحق، وتحسين الباطل؛ وإذا خرج إلى هذا فهو مذموم.

٢٦ ـ باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» [رواه أبو داود].

وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

قوله: (باب ما جاء في الكهان ونحوهم)، الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع؛ وكانوا قبل البعث كثير، وأما بعد البعث فإنهم قليل، لأن الله ـ تعالى ـ حرس السماء بالشهب، وأكثر ما يقع في هذه الأمة: ما يخبر به الجن مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون أن المخبر لهم بذلك ولياً لله، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١٢٨].

قوله: «**من أتى عرافاً**» وظاهر الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله سواء صدقه أو شك في خبره.

قوله: «**لم تقبل له صلاة**»، إذ كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟! قال النووي: معناه أن لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه.

قوله: وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» فناقل هذا الحديث، حذف منه واقتصر على ما يناسب الترجمة.

قوله: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه**» الخ، قال بعضهم: بين هذا وبين حديث من «**أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»، هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، وأما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين. وظاهر الحديث أنه يكفر من اعتقد صدقه بأي وجه كان.

قوله: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**»، قال القرطبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة، وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، أم يتوقف فيه فلا يقال: يخرج من الملة ولا ما يخرج؟ وهذا=

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» [رواه البزار بإسناد جيد].

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى» إلى آخره.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق».

وقال ابن عباس في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل

=أشهر الروايتين عن أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ.

قوله: «ولأبي يعلى بسند جيد مثله» ولفظه: «من أتى كاهناً أو ساحراً» إلخ، وفيه دليل على كفر الكاهن و الساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر؛ والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً.

قوله: وعن عمران بن حصين «ليس منا» فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وتقدم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «من تطير» أي فعل الطيرة «أو تُطير له» أي: قبل قول المتطير له وتابعه، وكذلك معنى «أو تكهن أو تُكهن له» كالذي يأتي الكاهن ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر، فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد بريء منه رسول الله ﷺ.

قوله: «قال البغوي: الخ» ظاهرأن العراف هوالذي يخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها.

قوله: «قال شيخ الإسلام: الخ».

ذلك له عند الله من خلاق».

فيه مسائل:

الأولى: أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تكهن له.

الرابعة: ذكر من تطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم. «أبا جاد».

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

=قوله: «ونحوهم» كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف، وقال أحمد: العراف طرق من السحر، والمقصود من هذا: أن من يدعي علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، أو مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط بالأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحوها من علوم الجاهلية، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد، وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، و لبسوا بها على خفافيش القلوب، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قوله: «وقال ابن عباس في قوم يكتبون أباجاد الخ».

قوله: «ما أرى» يجوز بفتح الهمزة بمعنى ما أعلم، وبضمها بمعنى لا أظن، وكتابة «أبي جاد» وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحروف، وهو الذي جاء فيه الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

قوله: «وينظرون في النجوم» أي: ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتي في باب التنجيم، وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

٢٧ ـ باب ما جاء في النشرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة، فقال: «هي من عمل الشيطان» [رواه أحمد بسند جيد و أبو داود وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله].

وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

قوله: (باب ما جاء في النشرة)، قال أبو السعادات: النشرة: ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن.

وقال الحسن: النشرة: من السحر.

قوله: «سئل عن النشرة» أي: النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

قوله: «سئل أحمد عنها» فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

قال شيخنا: الكراهة في ألسن السلف، يراد بها التحريم، ويراد بها التنزيه، وأراد أحمد أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً.

قوله: «وللبخاري عن قتادة» الخ .

قوله: «رجل به طب» أي: سحر، يقال: طب الرجل إذا سحر، ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما يقال: للديغ سليم، ويقال: الطب من الأضداد، يقال لعلاج الداء طب، والسحر داء ويقال له: طب.

قوله: «أو يؤخذ عن امرأته» أي يحبس عن امرأته، أي: «أيحل عنه أو ينشر».

قوله: (لا بأس به) يعني أن النشرة لابأس بها لأنهم إنما يريدون بها الإصلاح أي إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

ويروى عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر».

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

= قوله: وقال ابن القيم: «النشرة حل السحر» الخ، ومما جاء في صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله؛ تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور، الآية التي في سورة يونس ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ ـ ٨٢].

وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلى آخر الآيات الأربع [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٠].

وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به، يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز، أشار ـ رحمه الله ـ إلى مثل هذا، وعليه يُحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز، والله أعلم.

٢٨ - باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

قوله: (باب ما جاء في التطير) أي: من النهي عنه والوعيد فيه، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر، ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب؛ لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته يتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً، ومنافاتها للتوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره، واعتقاد النفع والضر في طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد، فهذا وإن كان من الشرك الأصغر، فهو من أقبح الشرك، ذكره المصنف في كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافي كمال التوحيد.

وقوله: وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ الآية، المعنى أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة، أي: الخصب والسعة والعافية قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله، وإن تصبهم سيئة، أي: بلاء وقحط يتطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ما قضى عليهم.

وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله، أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسوله.

قوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ الآية، المعنى: حظكم وما نابكم من شر معكم؛ بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم، فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر، فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره.

مناسبة الآية للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية المشركين، وقد ذمهم الله - تعالى - ومقتهم؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنه شرك، كما سيأتي في أحاديث الباب. =

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولاطيرة

=قوله: «وعن أبي هريرة» الخ.

قوله: «لاعدوى ولا طيرة» قال أبو السعادات: يقال: أعداه الداء، يعديه إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء. وفي رواية لمسلم، أن أبا هريرة كان يحدث بحديث: «لا عدوى» ويحدث بحديث: «لا يورد ممرض على مصح» ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: «لا يورد ممرض على مصح»، وأمسك عن حديث: «لا عدوى»، وقد روى حديث: «لا عدوى» جماعة من الصحابة، وفي بعض روايات هذا الحديث: «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد». وقد اختلف العلماء في ذلك، ومن أحسن ما قيل فيه: قول ابن الصلاح، والبيهقي، وابن القيم، وغيرهم، أن قوله: «لا عدوى» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله ـ تعالى ـ، وأن هذه الأمور تتعدى بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد»، وقال: «لا يورد ممرض على مصح»، وقال: في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه» وكل ذلك بتقدير الله ـ تعالى ـ. ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود: «لا يعدي شيء» قالها ثلاثاً: فقال أعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيم، فتجرب الإبل كلها، فقال رسول الله ﷺ: «فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها بنواصيها». فأخبر النبي ﷺ أن كل ذلك بقضاء الله وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر، إذا كان في عافية، فكما أنه يأمر أن لا يلقي نفسه في الماء وفي النار، بما جرت العادة أن يهلك أو يضر فكذلك مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله ـ سبحانه ـ هو خالق الأسباب ومسبباتها.

وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذا الأسباب اعتماداً على الله، ورجاءً منه أن لا يحصل به ضرر؛ ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة.

قوله: «ولا طيرة» قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً أي لا تطيروا، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه، وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله ﷺ: «الشؤم في ثلاث في المرأة والدابة والدار» ونحو هذا.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: إخباره ﷺ: «بالشؤم في هذه الثلاث» ليس فيها إثبات الطيرة التي نفاها الله ـ سبحانه ـ، وإنما غايته أن الله ـ سبحانه ـ قد يخلق منها أعياناً مشؤومة=

ولا هامة، ولا صفر» [أخرجاه]. زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول».

ولهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل» قالوا وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

=على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها، شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي ـ سبحانه ـ الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله ـ سبحانه ـ خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها، وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً ينحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضاء الله وقدره.

قوله: «ولا هامة» قال الفراء: طير من طير الليل، كأنه يعني البومة، يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلى نفسي أحداً من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: «ولا صفر» هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب، وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى. وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه.

وقيل: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤم، قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال. والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنه، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم من أهل الجاهلية بشوال في النكاح خاصة.

قوله: «ولا نوء»، سيأتي الكلام عليه.

قوله: «ولا غول» قال أبو السعادات: واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم، أي: تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

فإن قيل: ما معنى النفي وقد قال النبي ﷺ: «إذا تغولت الغيلان فادعوا فبادروا بالأذان»، أجيب: بأن ذلك كان في الابتداء ثم دفعه الله عن عباده. ويقال: المنفي ليس وجود الغول، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، ويكون المعنى أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه.

قوله: «ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل» قال أبو السعادات: الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء وربما استعملت فيما=

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي الحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

=يسر، يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت بكذا بالتخفيف، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة، ورجو عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم كان ذلك، وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن، بين ﷺ: أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، إلى أن قال: والله ـ سبحانه قد ـ جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، قال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله ـ تعالى ـ بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن بالله، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله على كل حال.

قوله: «ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال ذكرت الطيرة عند رسول الله» إلخ.

قوله: قال: «أحسنها الفأل»، قد تقدم أنه ﷺ كان يعجبه الفأل، قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا نهيه عن الرقا بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها، الخالية عن المفسدة.

قوله: «ولا ترد مسلماً»، قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره» إلخ.

قوله «فليقل: اللهم لا يأتي» إلخ أي: لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك، ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع [ضر]، وهذا هو التوحيد، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك» استعانة بالله ـ تعالى ـ على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل=

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً ـ: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»، [رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ].

ولأحمد من حديث ابن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**».

=الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات، و«الحول» التحول والانتقال من حال إلى حال و«القوة» على ذلك بالله وحده لا شريك له، ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله ـ تعالى ـ بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك.

قوله: «وله من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك الطيرة شرك» الخ»، وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك، لما فيها من تعلق القلب على غير الله.

قوله: «وما منا» إلخ، قيل التقدير: وما منا إلا وقع في قلبه شيء من ذلك.

قوله: «ولكن الله» إلخ أي: لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»، قال ابن القيم: وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك.

قوله: ولأحمد من حديث ابن عمر: «ومن ردته الطيرة عن حاجته»إلخ.

قوله: من ردته الطيرة عن حاجته «فقد أشرك»، وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها فمنعه عما أراد وسعى فيه ما رأى أو سمع تشاؤماً، فقد دخل في الشرك.

قوله: «فما كفارة ذلك» الخ، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه كفر الله عنه ما وقع في قلبه؛ وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه؛ وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب في الوقوع بما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله؛ فما أصابه من ذلك فبذنبه كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]. =

ولـه من حديث الفضل بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

= قوله: «وله من حديث الفضل بن العباس «إنما الطيرة ما أمضاك وأردك»» هذا حد الطيرة المنهي عنها أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده؛ أو يمنعه من المضي فيه كذلك، وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ ففيه نوع بشارة؛ فيسر به العبد ولايعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده فإن للقلب عليه نوع اعتماد، فافهم الفرق، والله أعلم.

٢٩ ـ باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به» انتهى.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص فيه ابن عيينة، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق.

قوله: (باب ما جاء في التنجيم)، قال شيخ الإسلام: التنجيم هو الإستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية. وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثير في السفليات؛ وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به؛ لا يعلم الغيب سواه.

قوله: «قال البخاري» الخ.

قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث»، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قوله: (وعلامات) أي دلالات على الجهات. (يهتدى بها) أي يهتدي بها الناس في ذلك.

قوله: «فمن تأول فيها غير ذلك» أي: زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ، وأضاع نصيبه من كل خير، لأنه أشغل نفسه بما يضر ولا ينفع.

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر»، قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك بالمشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، ويتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك معرفة رصد الظل.. شيء لا بأكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذت في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله وكثيره، وأما علم التسيير فيتعلم منه ما يحتاج للاهتداء ومعرفة=

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»** [رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه].

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

=القبلة والطريق جائز عند الجمهور.

قوله: «وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة»**، إلى آخره وتمامه: **«ومن مات وهو في يد من الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن»**.

قوله: «**ثلاثة لا يدخلون**»، هذه من نصوص الوعيد التي كره السلف تأولها، وقالوا: أمروها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم، وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام، فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: «**ومدمن الخمر**» أي: المداوم على شربها. «**وقاطع الرحم**» أي: القرابة.

قوله: «**ومصدق بالسحر**»، أي: مطلقاً، ومنه التنجيم؛ لما تقدم في الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة، قال الذهبي: في الكبائر: ويدخل فيه تعلم السيميا وعلمها، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته، وبغضها وبغضه وأشباه ذلك، بكلمات مجهولة.

٣٠ - باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٨٢].

عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والناحية على الميت».

قوله: (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)، أي: من الوعيد؛ والمراد: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء، جمع «نوء» وهي منازل القمر، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: «مطرنا بنوء كذا»، وإنما سمي نوء لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝﴾، عن علي - رضي الله عنه -: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ تقولون: «مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا»، وبه يظهر وجه استدلال المصنف - رحمه الله - بالآيات، وقال الحسن: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون. قال ابن القيم: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم، التكذيب به، يعني القرآن.

قوله: «عن أبي مالك الأشعري إلى آخره».

قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن»، ستفعلها هذه الأمة مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المحرمة، والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول الله ﷺ فهو جاهلية.

قوله: «الفخر بالأحساب» أي: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قوله: «والطعن في الأنساب»، أي: الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم» أي: نسبة المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم، فإذا قال أحدهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثير في إنزال المطر، فهذا شرك وكفر، وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده. لكنه أجرى العادة=

وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» [رواه مسلم].

ولهما عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «أتدرون ما ذال قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر

=بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم، وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله إلى خلق مسخرلا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركاً أصغر.

قوله: «والنياحة»، أي رفع الصوت بالندب على الميت، لأنها تسخط لقضاء الله وذلك ينافي الصبر الواجب.

قوله: «والنائحة إذا لم تتب قبل موتها»، فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، وهذا مجمع عليه.

قوله: «تقام» الخ، السربال واحد السرابيل وهي الثياب أو القمص، يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص؛ حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، وألمها بسبب الجرب أشد، وروي عن ابن عباس أن القطران هو النحاس المذاب.

قوله: «ولهما عن زيد بن خالد» الخ.

قوله: «صلى لنا» أي: بنا.

قوله: «على إثر سماء» هو ما يعقب الشيء، قوله: «سماء» أي: مطر لأنه ينزل من السحاب؛ والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: «فلما انصرف» أي التفت إلى المأمومين، أقبل على الناس.

قوله: «فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، لفظ استفهام ومعناه التنبيه.

قوله: قالوا: «الله ورسوله أعلم»، فيه حسن الأدب للمسئول، إذا سئل عما لا يعلم.

قوله: «قال أصبح من عبادي»، الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقوله: «مؤمن بي وكافر»، إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر، لأنه نسب نعم الله إلى غيره لأن الله=

بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» .

ولهما من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : بمعناه، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

=ـ تعالى ـ لم يجعل النوء سبباً لأنزال المطر فيه، وإنما فضل من الله ورحمته يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته»، فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة، أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة والعلم، وصفات الأفعال؛ كالرحمة التي يرحم بها عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف. وفي الحديث، أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا» الخ، تقدم الكلام على ما يتعلق بذلك.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع» يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء في إنزال المطر؛ فيكون من كفر النعم لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره.

قوله: «ولهما عن ابن عباس بمعناه وفيه، قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا» الخ، لفظه، عن ابن عباس قال: مطرالناس على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر»**، قالوا: هذه ـ رحمة الله ـ، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، هذا قسم من الله ـ عز وجل ـ يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء، وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧] أي: إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر وكهانة، بل هو قرآن كريم، أي عظيم كثير الخير لأنه كلام الله.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

الخامسة: قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان فيه هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «**لقد صدق نوء كذا وكذا**».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**».

العاشرة: وعيد النائحة.

٣١ - باب قول الله تعالى

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قولـه: (باب قول الله تعالـى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾) الآية، لما كانت محبته ـ سبحانه ـ هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل وبنقصها ينقص توحيد الإنسان.

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية، قال في شرح المنازل: أخبر ـ تعالى ـ أن من أحب من دون الله شيئا كما يحب الله ـ تعالى ـ فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً لايثبت هذا الند، بخلاف نـد المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قـد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم، واعلم أن المحبة على قسمين: مشتركة وخاصة، فالمشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية كمحبة الجائع للطعام أو الظمآن للماء ونحو ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

والثالث: محبة أنس وإلف وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضا كمحبة الإخوة بعضهم بعضاً، فهذه الأنواع الثلاثة، التي تصلح للخلق بعضهم في بعض ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان يحب نسـاءه وأحبهن إليه عائشـة ـ رضي الله عنها ـ وكان يحـب أصحابه وأحبهم إليه الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

القسـم الثاني: المحبة الخالصة التي لا تصلح إلا لله، ومتى أحب العبد بها غيره كان مشـركاً شركاً لا يغفره الله، وهي محبة العبودية والذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة وإيثاره على غيره فهذه المحبة لا يجوز تعلقها على غير الله أصلاً كما حققه ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: وهي التي سوى المشركون بين الله ـ تعالى ـ وبين آلهتهم فيها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفيها قولان:

أحدهما: وهو الصحيح أن المعنى والذين آمنوا أشد حبا لله، من محبة المشركين بالأنداد لله، فـإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد، وقد ذهب أندادهم بقسـط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. =

وقولـه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ قال: «**لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» [أخرجاه].

ولهما عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسـوله أحب إليه مما سـواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن**

=والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من حب أصحاب الأنداد لأندادهم التي يحبونها من دون الله. قال ابن القيم: والقولان مترتبان على القولين في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

قولـه: وقول الله تعالـى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية، أمر نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشـيرته وتجارته ومسـكنه فآثرها، أو بعضها، علـى فعل ما أوجبه عليه من الأعمـال التـي يحبها الله ـ تعالى ـ ويرضاها، كالهجرة والجهـاد ونحو ذلك، فلا بد من إيثار مـا يحبـه من عبده و أراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه، ويعادي فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحبة ونظائرها.

قولـه: وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ قال: «**لايؤمـن أحدكم**» أي الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، وفي هذ ا الحديث أن الأعمال من الإيمان لأن المحبة من عمل القلب، وفيه أن محبة الرسـول واجبـة تابعة لمحبة الله لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقـص بنقصها، وكل من كان محباً لله فإنما يحـب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالـح، فبهذا يحصل التمييز بين المحبـة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله، لما يتعلق في قلوب المشـركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له.

قوله: ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه**» أي ثلاث خصال.

قوله: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**»، الحلاوة: لذة القلب ونعيمه وسروره، وهذا يجده أهل الإيمان في قلوبهم.

قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» يعني مما يحبه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فمن علامات محبة الله ورسـوله: أن يحب ما يحبه الله، ويكره ما=

يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وفي رواية «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره.

وعن ابن عباس قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً [رواه ابن جرير].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]، قال: المودة.

=ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويتابع رسوله ويمتثل أمره، فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه، فذلك علم على عدم محبته لله ورسوله، فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا؛ كما في آية المحبة، ومن لوازم محبة الله أيضاً محبة أهل طاعته كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده.

قوله: «وأن يكره» الخ، أي يستوي عنده الأمران.

قوله: وعن ابن عباس قال: «من أحب في الله»، أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

«وأبغض في الله» أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله، وإن كانوا أقرب الناس إليه.

كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قوله: «ووالى في الله» هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله ـ تعالى ـ، فمن أحب الله أحب فيه؛ ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم.

قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك» أي: توليه لعبده.

قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان» إلى آخره، أي لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه؛ حتى يكون كذلك، أي حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي فيه.

قوله: «لا يجدي» الخ أي لا ينفعهم بل يضرهم.

قوله: وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾، قال: المودة: أي التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

٣٢ـ باب قول الله تعالى

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقولـه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقولـه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قولـه: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾) الآية، الخوف من أفضل مقامات الدين، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله ـ تعالى ـ والخوف ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر: وهو أن يخاف من طاغوت أن يصيبه بما يكره، وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهو سبب نزول هذه الآية.

الثالث: الخوف الطبيعي: وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك، فهذا لا يذم.

وقولـه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الآية، هذا نهي من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهـم أن يقصروا خوفهـم على الله، وهذا هو الإخلاص، فدلت هـذه الآية على أن إخلاص الخوف من شروط الإيمان.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، أخبر ـ تعالى ـ أن مساجد الله لا يعمرها إلا من آمن بالله واليوم الآخر؛ الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخصلوا له الخشـية دون ما سواه، فلا تكون المسـاجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان.

قولـه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية أخبر ـ تعالى ـ عن حال من جعل فتنة الناس له وهـي أذاهم كعذاب الله، الذي فر منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألـم عذاب الله إلـى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعـداء الرسـل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففر من ألم عذابهم إلـى ألم عذاب الله، وفر من ألم=

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» [رواه ابن حبان في صحيحه].

=ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه، قال: ﴿إني كنت معكم﴾، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق، وفي الآية رد على المرجئة ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق، والمعصوم من عصمه الله.

قوله: وعن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين» الخ، اليقين: كمال الإيمان.

قوله: «أن ترضيَ الناس» الخ، أن تؤثر رضاهم على رضا الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله، وإجلاله، وهيبته ما يمنع من استجلاب رضا المخلوقين بما يجلب له سخط خالقه، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله»، أي: ما وصل إليك من أيديهم؛ بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده.

ولا ينافي هذا الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم؛ للحديث «ومن صنع» الخ.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم فإنه لو قدره لساقته المقادير إليك. فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، بسبب وبلا سبب، ومن حيث أن لا يحتسب، لم يمدح مخلوقاً على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه وقد قرر هذا المعنى بقوله: في الحديث: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص» الخ.

قوله: «وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ» الخ.

قوله: «من التمس» أي طلب «رضا الله» قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»، هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: من أرضى الناس الخ، وهذا من الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقى الله وكان عبده الصالح، والله يتولى=

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك: هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

=الصالحين، والله كافٍ عبده، ويكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة، وفي الحديث، عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، فإن العقوبة قد تكون في الدين والعياذ بالله من ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٧].

٣٣ـ باب قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقولـه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

وقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

(قوله باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾) أراد المصنف ـ رحمه الله تعالـى ـ، بهذه الترجمة بالآيـة: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله ـ تعالى ـ؛ فهو من أجمـع أنواع العبادة وأعظمها، فإنـه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل ما سـواه صح إخلاصه، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة، إلا بكمال التوكل على الله، كما في هذه الآية. قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، قال الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهمـا: التـوكل في الأمور التي لا يقـدر عليها إلا الله، كالذيـن يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ، أو رزق، أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهذا نوع شرك أصغر.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسـان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسـير أمره الذي يطلبه بنفسـه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

قولـه: وقـول الله تعالـى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسـان، وهي الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان.

قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية، أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، وبهذا يتبين=

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قالها إبراهيم ـ عليه السلام ـ: حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ: حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣] الآية [رواه البخاري والنسائي].

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

=مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده وجب أن لا يتوكل إلا عليه.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، قال ابن القيم: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره. وفيها فضل التوكل.

قوله: «وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ الخ»، أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: نعم الموكول إليه.

قوله: «قالها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: حين أُلقِيَ في النار».

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٨ ـ ٦٩].

قوله: وقالها محمد ﷺ: حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية، وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد: بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة فقال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروهم أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد؛ فأخبروه بالذي قال أبو سفيان: فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة. وفي الحديث: «إذا وقعتم في الشدائد فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادســة: عظم شــأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومحمد ﷺ في الشدائد.

٢٤ـ باب قول الله تعالى

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ﴾) الآية.

قصد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، ومعنى الآية: أن الله ـ تعالى ـ لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بين أن الذي حملهم على ذلك هو أمن مكر الله وعدم الخوف منه، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً، قال الحسن ـ رحمه الله ـ: من وسع الله له فلم ير أنه يمكر به فلا رأيَ له، وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغرتهم، فلا تغتروا بالله.

قوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ الآية، القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد. ذكر هذه الآية مع التي قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً يخاف ذنبه ويعمل بطاعته ويرجو رحمته.

قوله: «وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر».

قوله: قال: «الشرك بالله»، هو [أكبر] الكبائر.

قوله: «واليأس من روح الله» أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله.

قوله: «والأمن من مكر الله» أي: من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها. =

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» [رواه عبد الرزاق].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

= قوله: «وعن ابن مسعود» الخ.

وقوله: «والقنوط من رحمة الله» هو شدة اليأس، وفيه التنبيه على الرجاء والخوف، وكان السلف يحبون أن يقوى في الصحة: الخوف؛ وفي المرض: الرجاء، قال سليمان: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف؛ فإذا غُلِّبَ الرجاء فسد القلوب، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] وقدم الخوف في هذه الآية.

٣٥ ـ باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

قوله: (باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله) قال أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه، وفي الحديث، «الصبر ضياء»، قال علي ـ رضي الله عنه ـ: إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى الله عنه، وصبر على ما قدره الله من المصائب، والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوها.

قوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ أول الآية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، أي بمشيئته وإرادته وحكمته.

وقال ابن عباس: إلا بأمر الله يعني من قدره ومشيئته.

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾، أي: ومن أصابته مصيبة، فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، جازاه الله ـ تعالى ـ بهداية قلبه، وقد يخلف عليه أيضاً في الدنيا ما أخذ منه أو خيراً منه. وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب وأنها من ثواب الصابر.

قوله: «قال علقمة» الخ، فيه دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

وقوله: «في صحيح مسلم عن أبي هريرة» الخ.

قوله: «الطعن في النسب» أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: «والنياحة على الميت» أي رفع الصوت بالندب، لما فيه من التسخط على القدر المنافي=

ولهما عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله ـ تعالى ـ إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» [حسنه الترمذي].

=للصبر، وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قوله: «ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا» الخ».

قوله: «من ضرب الخدود وشق الجيوب» وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» هو ندب الميت، وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء، لما في الصحيح أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون».

قوله: «وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله ـ تعالى ـ بعبده الخير» الخ».

قوله: «عجل له العقوبة» أي يصب عليه البلاء والمصائب لما فَرَّطَ من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يُوفى به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له؛ والإعراض عن الخلق إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، إلى أن قال: فهي بعينها فعل الرب ـ عز وجل ـ ورحمة للخلق والله ـ تعالى ـ محمود عليها، فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه.

قوله: «وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك» الخ، أي: أخر عنه العقوبة بذنبه حتى يوفى به يوم القيامة.

قوله: وقال النبي ﷺ «عظم الجزاء» إلخ.

قوله: «مع عظم البلاء» إذا احتسب وصبر.

قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم» ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أى: الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه».

قوله: «فمن رضي فله الرضا» أي: من الله.

قوله: «ومن سخط فله السخط» الكراهة للشيء وعدم الرضا به، أي: من سخط على الله فيما=

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

=دبره فله السخط؛ أي: من الله، وكفى بذلك عقوبة، وقد يستدل به على وجوب الرضا.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها انتهى.

٣٦ ـ باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» [رواه مسلم].

(قوله: باب ما جاء في الرياء) أي: من النهي والتحذير، وهو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها، والفرق بينه وبين السمعة أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بعمله.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية، أي: ليس لي شيء من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده أوحاه إلي ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي: يخافه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم. قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في الآية: أي: كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة.

قوله: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري» أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه. قال ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين: كما قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] الآية. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة والحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم في أنه حابط؛ وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص تدل على بطلانه، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء؛ مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية. قال ابن رجب: وقال أحمد: والمستأجر والمكري أجرهم على قدر=

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال» قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل» [رواه أحمد].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب أنه ـ تعالى ـ خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن المرء يصلي لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

=ما يخلص من نياتهم من غزواتهم؛ ولا يكون كمن جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره. وقال أيضا فيمن يأخذ جعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أُعطي شيئاً أخذه، وروي عن مجاهد أنه قال: في حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر: هو تام لا ينقص من أجرهم شيء، أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب، قال: وأما من كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه الرياء، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك.

قوله: عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ألا أخبركم» الخ.

قوله: «الشرك الخفي» أي: لأن صاحبه يظهر عمله لله وقد قصد به غيره أو شَرَّكَهُ فيه بتزيين صلاته لأجله.

وفي الحديث شفقة النبي ﷺ على أمته، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، فإذا كان ﷺ يخاف على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.

٣٧ ـ باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [هود: ١٥].

في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في**

(باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

أراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة أن العمل لأجل الدنيا شرك، ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهي أعظم من الرياء.

وقوله: وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيتين.

قال ابن عباس: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ثوابها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها، ﴿نُوَفِّ﴾ أي: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في الأهل والولد ﴿فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ ثم نسختها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

قوله: ثم نسختها أي قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها. وقال قتادة: يقول: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

قوله: «وعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «تعس» الخ»، قال أبو السعادات: يقال «تعس» إذا عثر وانكب لوجهه، دعاء عليه بالهلاك.

قوله: «عبد الدينار» هو المعروف من الذهب، «تعس عبد الدرهم» هو من الفضة، قدر بالشعيرة وزناً، «تعس عبد الخميصة» ثوب خز أو صوف معلم.

قوله: «تعس عبد الخميلة» بفتح الخاء ذات الخمل ثياب لها خمل من أي شيء كان.

قوله: «تعس وانتكس»، قال الطيبي: فيه الترقي في الدعاء عليه، لأنه إذا تعس انكب على وجه، وإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

«وإذا شيك فلا انتقش» أي إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قال شيخ=

سـبيل الله، أشعث رأسـه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدنيار والدرهم والخميصة.

=الإسـلام ـ رحمه الله تعالى ـ: فسـماه النبي ﷺ «عبد الدينار والدرهم» وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منـه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس فلا نـال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبـد المال إلى أن قال: وهذا هو العبد لهـذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط.

قوله: «طوبى» قيل: اسم الجنة، وقيل: شجرة فيها.

قوله: «آخذ بعنان فرسه في سبيل الله» أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أشعث رأسه» وهو ثائر الرأس أشغله الجهاد عن التنعم وتسريح الشعر.

قوله: «مغبـرة قدماه إن كان في الحراسـة» أي: حماية الجيـش أن يهجم العدو عليهم، «كان في الحراسة» أي: غير مقصر.

«وإن كان في السـاقة» أي: مؤخرة الجيش، يقلب نفسـه في مصالح الجهاد، فكل مقام يوافيه وإن كان ليلاً أو نهاراً رغبة في ثواب الله وطلبا لمرضاته. قال ابن الجوزي: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

قولـه: «إن اسـتأذن» أي: على الأمراء أو نحوهم، لم يأذنـوا له، لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة، لأنه إنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

«وإن شـفع لم يشـفع» يعنى لو ألجأته الحال إلى أن يشـفع في أمر يحبه الله ورسـوله لم تقبل شـفاعته عنـد الأمراء ونحوهم لعدم جاهـه عندهم، وفي الحديث: «رب أشـعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسـم على الله لأبره»، قال الحافظ: فيه ترك حب الرياسـة والشـهرة وفضل الخمول والتواضع، وفيه فضل الحراسة في سبيل الله، وفي الحديث: «حراسة ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها».

الرابعة: تفسير بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

٣٨ ـ باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال: أبو بكر وعمر؟!

وقال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان! والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله: أن يقع في قلبه شيئ من الزيغ فيهلك.

قوله: (باب من أطاع العلماء) إلخ، لما كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة لأنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله ـ عليهم السلام ـ نبه المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق بها وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالا، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال وتحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لاينطق عن الهوى فهو مشرك.

قوله: وقال ابن عباس: يوشك: أي: يقرب ويسرع، جواباً لمن قال له: أن أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، فلهذا قال ابن عباس: لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر «يوشك» الخ، وقد أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد: ومازال العلماء ـ رحمهم الله ـ يجتهدون في الوقائع فمن أصاب منهم فله أجران ومن أخطأ فله أجر، لكن إذا استبان لهم الحديث، أخذوا به وتركوا اجتهادهم.

وقوله: وقال أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد» الخ، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح، وسفيان هو الثوري الإمام الزاهد العابد الفقيه.

فقول الإمام أحمد: «عجبت» الخ، إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون=

وعن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟» فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» [رواه أحمد والترمذي وحسنه].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهم ـ، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من المجاهدين.

=به المرء كافراً.

قوله: (أو يصيبهم) في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

قوله: «وعن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ» الخ، وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]، وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبار الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك، وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص: ٥٠] الآية، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: في هدم الإسلام: يهدمه زلة العالم؛ وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين [رواه الدارمي].

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

٣٩ - باب قول الله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء: ٦٠].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الآيات) لما كان التوحيد الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزماً له وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلها النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله: «بني الإسلام على خمس» الحديث.

نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد واستلزمه من تحكيم رسول الله ﷺ في موارد النزاع إذ هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ولازمها الذي لا بد منه لكل مؤمن، ونبه على معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد ورسول لا يكذب بل يطاع ويتبع، ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره، وبذلك يحقق العبد كمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين.

إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم بها، أن الله ـ تعالى ـ أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومة إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال ابن القيم: والطاغوت كل ما تعدى به حده من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذا تعدى به حده، فمن خالف ما أمر الله ورسوله بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده فقد خلع الإسلام والإيمان من عنقه وإن زعم أنه مؤمن فإن الله ـ تعالى ـ أنكر على من أراد ذلك وأكذبهم في زعمهم الإيمان، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة، فإن لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد به.

قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ الآية، يبين ـ تعالى ـ أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ [المنافقون: ٥] الآية، بين ـ تعالى ـ أن هذه صفة المنافقين، =

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح، رويناه في

=ويصدون: بمعنى يعرضون.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ يعني لا تعصوا في الأرض، لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي. ومطابقة هذه الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية.

قال ابن كثير: ينكر ـ تعالى ـ على من خرج عن حكم الله ـ تعالى ـ المشتمل على كل خير وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكسخان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام وأقيسة من شرائع شتى، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، وصار في بنيه شرعا يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: لا حكم أحسن، أي من أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه ـ تعالى ـ أحكم الحاكمين.

قوله: «عن عبد الله بن عمرو» الخ.

قوله: «لا يؤمن أحدكم» أي لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار.

قوله: «حتى يكون هواه» الخ، الهوى: بالقصر، أي ما يهواه وتحبه نفسه و تميل إليه، فإن كان=

كتاب الحجة بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومةٌ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وقيل: الآية نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

الرابعة: تفسير ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

=الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب. ومناسبة الحديث للترجمة بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم.

قوله: وقال الشعبي: وهو عامر بن شرحبيل الكوفي عالم أهل زمانه، قال الذهبي: وفي ما قاله الشعبي: ما يبين أن المنافق أشد كراهة لحكم الله ورسوله ﷺ من اليهود والنصارى، ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان كما هو الواقع في هذه الأمة وقبلها، وفي قصة عمر ـ رضي الله عنه ـ وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وفيها بيان المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل كما في الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس فإنه قال: لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعا لما جاء به الرسول ﷺ.

٤٠ ـ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي صحيح البخاري: قال عليٌّ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟».

قوله: (باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات) أي: من أسماء الله وصفاته، والمراد ما حكمه؟ ولما كان تحقيق التوحيد بل التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله والإيمان بأسمائه وصفاته نبه المصنف ـ رحمه الله ـ على وجوب الإيمان بذلك. وأيضاً فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية والعبادة، وكلها متلازمة، فناسب التنبيه على وجوب الإيمان بتوحيد الصفات.

قال: قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية أي يجحدون هذا الاسم لا أنهم يجحدون الله فإنهم يقرون بالله. قال ابن كثير: وهم يكفرون بالرحمن أي لا يقرون به لأنهم يأبون وصف الله بالرحمن الرحيم. ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة لأن الله ـ تعالى ـ سمى جحود اسم من أسمائه كفراً فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر.

قوله في صحيح البخاري: قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون» الخ.

قوله يعرفون: أي يفهمون سبب هذا القول والله أعلم ما حدث في زمانه من كثرة إقبال الناس على الحديث وكثرة القصاص وأهل الوعظ فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف فربما استنكروها وردوها وقد يكون لبعضها أصل ومعنى صحيح فيقع بعض المفاسد لذلك فأرشدهم إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علما وعملاً دون ما يشغل عن ذلك مما يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب. وقد كان المصنف ـ رحمه الله ـ لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم التي لا غنى لهم عن معرفتها، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي [كالمنعش، والمرعش والتبصرة] لأن في ذلك من الإعراض عن ما هو أوجب وأنفع، وفيها ما لا ينبغي اعتقاده. وكان معاوية بن أبي سفيان نهى عن القصص لما فيها من الغرائب والتساهل في النقل وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم=

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات؛ استنكاراً لذلك فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» انتهى [رواه عبد الرزاق وابن أبي عاصم وهو صحيح].

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [رواه ابن جرير وهو صحيح].

=وترك كل ما هو وسيلة إلى الخروج عن قوله: «حدثوا الناس بما يعرفون»، قال الحافظ: زاد آدم بن أبي إياس: ودعوا ما ينكرون. قال: وفيه دليل على أن المتشابه لا يذكر عند العامة. ومثله حديث ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لهم فتنة. وفي الأثر ـ دليل على أنه إذا خشي ضرر من يحدث الناس ما لايعرفون فلا ينبغي تحديثهم به.

قوله: «وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات فقال: ما فرق هؤلاء» الخ.

قوله: «ما فرق هؤلاء» يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرق أى خوف فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجب الله على عباده المؤمنين فإن الواجب على العبد المسلم الإيمان والإذعان والإيمان بما صح من الله وعن رسوله وإن لم يحط به علماً.

والثاني بأن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء وما نافية أي: ما فَرَّقَ هذا بين الحق والباطل ولا عرف ذلك فلهذا قال: يجدون رقةً أي: ليناً وقبولاً للمحكم ويهلكون عند المتشابه، المتشابه، أي ما يشتبه عليهم فهمه لا أن آيات الصفات هي المتشابه كما تقول الجهمية ولا أن في القرآن متشابها لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية وإنما المراد بالمتشابه ما يشتبه فهمه على بعض الناس دون بعض فقد يكون متشبهاً بالنسبة إلى قوم بيناً جلياً بالنسبة إلى آخرين.

قلت: وليس من هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته من المتشابه وما قاله النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

وقوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ وفيه دليل على من أنكر شيئاً من الصفات أنه من الهالكين ـ فالواجب على العبد الإيمان بذلك سواء فهم أو لم يفهم.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة: أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.

٤١ ـ باب قول الله تعالى:

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]

قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي».

وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «أن الله ـ تعالى ـ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث، وقد تقدم: وهذا كثيرٌ في الكتاب والسنة: يذم ـ سبحانه ـ من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير».

(قوله: باب قول الله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ الآية).

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جانب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلى غير الله ـ تعالى ـ.

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ ما ذكره العلماء في معناها، والآية تعم ما ذكر العلماء.

قوله: وقد تقدم (في باب ما جاء في الإستسقاء بالأنواء) وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية من نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها وإسناد أسبابها إلى غيره كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا، قال الشيخ: فيه اجتماع الضدين في القلب وتسمية هذا الكلام إنكار للنعمة.

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ الآية، ذكر المصنف ما ذكره بعض العلماء في معناها. قال ابن جرير عن السدي: يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون ما أعد الله في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم في ذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

٤٢ ـ باب قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار؛ لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله

(قوله: باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾) اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد كما يجري على لسانه شيء من الشرك الأصغر لا يقصده.

فإن قلت: الآية نزلت في الأكبر، قيل السلف: يحتجون بما نزل في الأكبر على الأصغر كما فسره ابن عباس وغيره، فيما ذكر المصنف عنه، وفسرها أيضا في الشرك الأكبر، وفسرها غيره بشرك الطاعة، وذلك لأن الكل شرك.

ومعنى الآية أن الله ـ تبارك وتعالى ـ نهى الناس أن يجعلوا له أنداداً أي أمثالاً في العبادة والطاعة وهم يعلمون أن فعل تلك الأفعال شرك، وهذه الآية في سياق قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، قال أبو العالية: أنداداً أي: عدلاء شركاء، وقال ابن زيد: الأنداد هم الآلهة، وعن قتادة ومجاهد أنداداً قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله ـ تعالى ـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فتأمل هذه الآية وشدة لزومها لتلك المقدمات إلى أن قال: إذا كان الله وحده الذي فعل هذه الأفعال فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله.

قوله: قال ابن عباس في الآية: الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل الخ، هذا من الشرك وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد أو الشرك، فتنبه لهذه الأمور فإنه من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه وتبيينه لكونه أكبر الكبائر، وهذا من ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ تنبيه من الأدنى من الشرك على الأعلى. =

وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك» [رواه ابن أبي حاتم].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» [رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً».

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» [رواه أبو داود بسند صحيح].

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

= وقوله: وعن «إلخ».

قوله: «فقد كفر أو أشرك» يحتمل أن يكون شك من الراوي، أو تكون أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك، ويكون كفر دون الكفر الأكبر، مما هو من الشرك الأصغر.

قوله: قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله، ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر. فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار.

قوله: وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان» إلخ، وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه، لأنها وضعت لمطلق الجمع، لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، وتسوية الخالق بالمخلوق شرك إن كان في الأصغر، مثل هذا فهو أصغر وإن كان في الأكبر فهو أكبر كما قال عنهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٩٨]، بخلاف المعطوف بثم، فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه، فلا محذور لكونه صار تابعاً.

قوله: وعن إبراهيم النخعي: «أنه كان يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويُجَوِّزُ أن يقول: بالله ثم بك» إلخ، وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك، وهذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة سبب في الشيء وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك.

وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر فلا يقال في حقهم شيء من ذلك، فلا يجوز لهم التعلق عليهم بشيء ما بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك، وينادي أنه يجعلهم آلهة إذا سألوا شيئاً من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين (الواو) و (ثم) في اللفظ.

٤٣ ـ باب ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» [رواه ابن ماجه بسند حسن، وصححه الألباني].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

(باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)، أي من الوعيد لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية.

قوله عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «لاتحلفوا بآبائكم»، تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموماً.

قوله: «ومن حلف بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

قوله: «ومن حلف له بالله فليرض» إلخ، أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضى، وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات فهذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرياً من تهمة، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر: ولا تظن بكلمة خرجت من مسلم شراً و أنت تجد لها في الخير محملاً.

قوله: «ومن لم يرض فليس من الله» وهذا وعيد كقوله: «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء».

قال ابن كثير: قد برأ منه الله.

٤٤ ـ باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولــون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» [رواه النسائي وصححه، وحسنه الحافظ ابن حجر في الإصابة].

وله: أيضاً عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شــاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده» [رواه أحمد وصححه أحمد شاكر].

(باب قول ما شاء الله وشئت) أي: ما حكم المتكلم بذلك هل يجوز أم لا؟ وإذا قلنا: لا يجوز فهل هو من الشرك أم لا؟

«عــن قتيلة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ» الــخ، فيه قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان، وفيه النهــي عن الحلف بالكعبة مع أنها بيت الله التي حجهــا وقصدها بالحج والعمرة فريضة، وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء لا لنبي مرسل ولا ملك مقرب ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه، وقد وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسـؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن المعلوم أن الكعبة لا تنفع ولا تضر، وإنما شــرع لعباده الطواف بها، والعبادة عندها، فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

قوله: «إنكم تشــركون تقولون: ما شــاء الله وشئت» والعبد وإن كان له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله؛ ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝﴾ [التكويــر:٢٨] الآيتــين. وفيه الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله، وأما أهل السنة والجماعة فاعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشــيئة الله في كل شيء مما يوافق ما شرعه وما يخالفه من أفعال العباد وأقوالهم، فالكل بمشيئة الله وإرادته، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد، وفي الحديث بيان أن الحلف بالكعبة شرك.

قوله: وله أيضاً «عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شــاء الله وشئت الخ» هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك لوجود التسوية والعطف بالواو.

وقوله: «أجعلتني لله نداً؟!» فيه بيان أن من سوَّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله=

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها، قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفرٍ من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإن طفيلاً رأى رؤياً أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله نداً؟!» فكيف بمن قال: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك...»، والبيتين بعده.

= نداً لله شاء أم أبى خلافاً لما يقوله الجاهلون بما يختص بالله ـ تعالى ـ من عباده، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

قوله: «ولابن ماجه عن الطفيل» الخ، وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها ونهاهم أن يقولوا: ما شاء الله ومحمد، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده، وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا: ما شاء الله وحده. ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقول: ثم فلان لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

وقوله: «كان يمنعني...» الخ ورد أنه كان يمنعه الحياء منهم، وبعد الحديث الذي حدثه الطفيل خطبهم ﷺ فنهاهم عن ذلك نهياً بليغاً، فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله به الدين وأتم له به النعمة وبلغ البلاغ المبين، وفيه معنى قوله: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهي وحي يثبت ما يثبت بالوحي أمرٌ ونهياً.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

٤٥ ـ باب من سب الدهر فقد آذى الله:

وقــول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ الآية [الجاثية:٢٤].

وفــي الصحيح عن أبي هريــرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «قال الله ـ تعالى ـ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر؛ أقلب الليل والنهار».

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

(باب من سب الدهر فقد آذى الله)، مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة لأن سب الدهر يتضمن الشرك كما سيأتي.

قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ الآية يخبر ـ تعالى ـ عن الدهرية الكفار ومن وافقهم من مشــركة العرب في إنكار المعــاد ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ مــا ثــم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامة، ولهذا قالوا: وما يهلكنا إلا الدهر قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون.

قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة» إلخ.

قوله: «يسب الدهر وأنا الدهر» قال: ومعناه أن العرب كانت من شأنهم ذم الدهر أي سبه عند النوازل لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، وقد أورد ابن جرير: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يميتنا ويحيينا، ويسبون الدهر.

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابتهم شدة وبلاء أو ملامة قالوا: يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر، ويســبونه، وإنما فاعلها هو الله، فكأنهم إنما ســبوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهينا عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله هو الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال.

وقوله: «وفي رواية...» إلخ يعني: إنما يجري فيه من خير وشــر أنه بإرادة الله وتدبيره بعلم منه وحكمة لا يشاركه في ذلك غيره، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك=

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابّاً ولو لم يقصده بقلبه.

=حمده في الحالتين وحسن الظن به ـ سبحانه ـ وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] الآية. ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثير كما في أشعار المولدين. وليس منه أي سب الدهر وصف السنين بالشدة ونحو ذلك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨] الآية.

قال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولة ... يُطوى ويُنشر بينها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

٤٦ - باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله**»، قال سفيان: مثل: شاهان شاه.

وفي رواية: «**أغيظ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثه**».

وقوله: «**أخنع**»: يعني: أوضع.

(باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه).

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه.

قوله: في الصحيح «عن أبي هريرة» إلخ.

قوله: «**ملك الأملاك لا مالك إلا الله**» لأن هذا الاسم إنما يصدق على الله ـ تعالى ـ فهو ملك الأملاك، لا مُلك أعظم ولا أكبر منه مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

قوله: قال سفيان بن عيينة: مثل شاهِ شاه، عبارة عن ملك الأملاك بلغة العجم.

وفي رواية: «**أغيظ رجل**» أغيظ من الغيظ وهو الغضب والبغض، فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه.

قوله: «**وأخبثه**» وهو بدل أيضاً من هذا خبيث عند الله، فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة إنما هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: «**أخنع**» يعني أوضع، هذا هو معنى أخنع، فيفيد ما ذكرنا في معنى أغيظ أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله، وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم.

قوله: «**أغيظ رجل**» هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك، وإتيانه على وجه يليق بجلال الله وعظمته ـ تعالى ـ إثباتاً بلا تمثيل، ونثبتها بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله؛ كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله ـ تعالى سبحانه ـ.

٤٧ ـ باب احترام أسماء الله ـ تعالى ـ وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح ـ رضي الله عنه ـ؛ أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟» فقلت: شريحٌ، ومسلمٌ وعبد الله، قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريحٌ. قال: «فأنت أبو شريح» [رواه أبو داود وغيره].

قوله: (باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك)، أي: لأجل احترامها وهو تعظيمها وذلك من تحقيق التوحيد.

قوله: «عن أبي شريح» «أنه كان يكنى أبا الحكم» الكنية ما صُدّر بأب وأم، واللقب ليس كذلك.

قوله: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم» فهو ـ سبحانه ـ الحكم في الدنيا والآخرة يحكم في الدنيا بين خلقه بوحيه الذي أنزله على رسله. قال البغوي: هو الذي إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغيره ـ تعالى ـ وإليه الحكم أي الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة.

قوله: «قومي إذا اختلفوا في شيء» الخ، أي سماني قومي بذلك لذلك.

قوله: «ما أحسن هذا» قيل: أي الحكم بين الناس حسن، وقيل: ما أحسن ما ذكرته من وجه الكنية، قيل: وهو أولى، فالمعنى ـ والله أعلم ـ أن أبا شريح لما عرف قومه منه أنه صاحب إنصاف وتحر للعدل بينهم صار عندهم مرضياً، وهذا هو الصلح، لأن مداره على الرضا لا على الإلزام ولا على أحكام الكهان، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الإستناد إلى أحكام كبرائهم وأسلافهم، كما قد يقع اليوم كثيراً كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

قوله: «فما لك من الولد» الخ، قال: «فأنت أبو شريح» فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: احترام صفات الله وأسماء الله ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

٤٨ ـ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقــول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أســلم وقتادة، دخل حديث بعضهم في

(باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) أي أنه يكفر بذلك لاستخفافه بالربوبية والرســالة، فمن اســتهزأ بالله أو بكلماته أو برســوله أو بدينه كفر، ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء.

وقولــه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية، يقول تعالى: «ولئن ســألت يا محمد هؤلاء الذين تكلـموا بالاســتهزاء ليقولــن معتذرين إنما كنا نخوض ونلعب، لم يقصد حقيقة ذلك، فأخبرهم أن عذرهم لا يغني شيئاً وأنهم كفروا بعد إيمانهم». قال شيخ الإسلام: وقول من قال إنهم كفروا بعد إيمانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لايصح لأن الإيمان باللسان والكفر بالقلب، قد قارنه الكفر فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظـهاركم الإيمان فهم لم يظهروا ذلك لخواصهم، لكونهم مع خواصهم مازالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تنبئ ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاســتهزاء صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يــدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين إلى أن قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعترفوا واعتذروا.

ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً. بل ظنوا أن ذلك [لا] يكفر، فبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، لكن لم يظنوا أنه كفر، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه، قال: وفي الآية دليل علـى أن الرجـل إذا فعـل الكفر ولـم يعـــلم أنه كفر لا يعذر بذلك بل يكفر، وعلى أن الساب كافر بطريق الأولى.

قوله: «دخل حديث بعضهم في بعض» أي أن مجموع رواياتهم.

بعـض: «أنه قال رجل في عزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسـنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسـول الله ﷺ وأصحابه القراء - فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافقٌ؛ لأخبرن رسـول الله ﷺ، فذهب عوفٌ إلى رسـول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سـبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق» قال ابن عمر: «كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض و نعلب، فيقول له رسـول الله ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبـة: ٦٤ - ٦٥] وما يلتفت إليه، وما يزيده عليه» [رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وسنده حسن].

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة؛ أن من هزل بهذا؛ فهو كافر.

= قولـه: «أرغب» أي: أوسـع، يريد كثـرة الأكل، وهو وإن كان مذمومـاً لكن هذا ذكره استهزاء، وقد كذب هذا، فإن الصحابة هم أحسن الناس اقتصاداً في الأكل وغيره، بل المنافقون والكفار أوسـع بطونـاً وأكثر أكلاً كما صحت بذلك الأحاديث، وكذلك المنافقون أشـد الناس جبناً، وهم أكذب خلق الله كما وصفهم الله بذلك في كتابه، ولهذا قال عوف: كذبت، ولكنك منافق. فيه جواز وصف الرجل بالنفاق إذا ظهر منه ما يدل عليه.

وقوله: «لأخبرن...» إلخ، هذا من النصيحة لله ورسوله.

قوله: «بنسـعة ناقة رسـول الله ﷺ»، قيل: مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره، وقد تنسـج عريضة تجعل على صدر البعير.

قولـه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الـخ فيه اعتبار المقاصـد؛ لأنهم لم يذكروا الله ولا رسـوله ولا كتابه، وفيه أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدها خطراً إرادة القلوب فهي البحر الذي لا سـاحل له، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر فإن الله - تعالى - أثبـت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا: ما قالوه كما قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

٤٩- باب ما جاء في قول الله تعالى

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به، وقال ابن عباس: يريد من عندي.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهلٌ، وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته

(باب ما جاء في قوله الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾)، المراد بهذه الترجمة بيان أن ما يحصل للعبد من النعم والفوائد مجرد فضل من الله وإحسان، من غير استحقاق من العبد لذلك، وإنما تفضلاً من الرب عليه جوداً وكرماً وإحساناً. فإذا علم العبد ذلك استفاد فوائد جليلة، منها محبة الرب على إحسانه وجوده وكرمه، ومنها استحقار النفس واستكانتها وتواضعها عند النعم لمولاها الحق، ومنها الحذر من كفر النعم ونسبتها إلى تعبه وكده وتحصيله كما فعل الأبرص والأقرع. وأما معنى الآية فإنه أخبر - تعالى - عن الإنسان أنه إذا رزق رحمة من الله من مال أو عيال أو غير ذلك من إحسان المنعم ليقولن: هذا حصلته بسعيي واجتهادي، فينسبها إلى نفسه ولا ينسبها إلى ربه. وهذا معنى ما ذكره المصنف عن مجاهد: بعملي وأنا محقوق به، يعني أن ما حصل لي هذا المال بسعيي في التجارة وعلمي بالأسباب الجالبة بالربح، وأنا محقوق به، أي أستحق لذلك المال. فظاهر كلام مجاهد أن القائل نسب الإعطاء إلى ربه وسببه فحصل السبب في جمع المال سعيه والمعطي لذلك هو الله، لكنه استدل بذلك على أن الله إنما أعطاه هذا المال لكرامته عليه ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾.

قوله: «قال مجاهد» رواه عبد بن حميد وابن جرير بنحوه.

قوله: «بعملي» أي: كسبي واحترافي.

قوله: «محقوق به» أي: مستحق له.

قوله: «وقال قتادة» رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

على شرف.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به،قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ فأعطي ناقةً عشراء، وقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل، فأعطي بقرةً حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والداً، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقرِ، ولهذا

= قوله: (وعن أبي هريرة) هذا سياق مسلم.

قوله: «فأراد الله» ورواية البخاري: «بدا لله» بالباء الموحدة والدال المهملة وكسر لام الجلالة، قال ابن قرقول: ضبطناه بالهمز، ورواه كثير من الشيوخ بلا همز.

قوله: «قذرني الناس» بكسر الذال المعجمة أي: كرهوني، انتهى من تنقيح الزركشي.

قوله: «شك إسحاق» أي: ابن عبد الله بن أبي طلحة.

قوله: «ناقة عشراء» بعين مهملة مضمومة وشين معجمة مفتوحة وبالمد غير منصرف؛ قال في تيسير الوصول: هي الحامل، وقيل: هي التي أتى على حملها عشرة أشهر، و في التنقيح: وهي من أنفس الإبل.

قوله: «فأعطاه شاة والداً» قال الزركشي الشافعي: أي ذات ولد، وقال في التيسير: الشاة الوالد التي عرف منها كثرة الولد والنتاج.

قوله: «فأنتج هذان» بفتح الهمزة والتاء المثناة فوق، أي صاحب الناقة والبقرة.

قوله: «وولد هذا» بتشديد اللام، أي صاحب الشاة، قال في التيسير: ومعناه اعتنى بها عند الولادة اهـ أي: وحفظها وقام بمصالحها.

قوله: «في صورته وهيئته» قال ابن القيم: في كتاب الأعلام: وهذا ليس بتعريض وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القصة كما أوهم الملكان داود أنهما=

وادٍ من الغنم، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ـ بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله ـ عز وجل ـ المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له: مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال : وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» [أخرجاه].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

=صاحبا القصة.

قوله: «انقطعت بي الحبال» بالحاء المهملة بعدها باء موحدة، أي الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، ولبعض رواة مسلم: «الحيال» ياء تحتية؛ جمع حيلة، قاله الزركشي.

قوله: «أتبلغ به» من البلغة، وهي الكفاية، أي أتوصل به إلى مرادي.

قوله: «فصيرك الله إلى ما كنت» أي: ردك الله إلى ما كنت عليه سابقاً من البرص والفقر.

قوله: «لا أجهدك» هكذا لبعض رواة مسلم؛ أي: لا أشق عليك في الأخذ والامتنان.

ورواية البخاري: «لا أحمدك» بالحاء المهملة والميم أي على طلب شيء أو أخذ شيء مما تحتاج إليه من مالي كما قيل: «ليس على طول الحياة ندم» أي: على فوت طول الحياة، ولما لم يصح لبعضهم هذه المعاني قال بإسقاط الميم، أي لا أحدك أي لا أمنعك شيئاً، وهذا تكلف وتغيير للرواية، قاله الزركشي الشافعي.

إلى هنا انتهى نقلاً عما كتبه الشيخ: إسحاق بخطه حاشية على كتاب التوحيد.

وصلى الله وسلم على محمد.

وما بعده من الأبواب من كتاب: «إبطال التنديد» للشيخ: حمد ابن عتيق إلى نهاية الكتاب.

٥٠ ـ باب قول الله تعالى

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب.

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعانني أو لأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن، يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً ثم حملت

(باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾).

أول الآية: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف، الآية: ١٨٩] أي: من أبينا آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء خلقها الله منه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: يطمئن إليها ويألفها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطأها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي: لا يثقلها أولاً إنما هو نطفة وعلقة ومضغة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت عليه، وقال مهران: استخفته، وقال ابن جرير: استمرت بالماء قامت به وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذا ثقل بحملها، قال السدي: كبر في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: آدم وحواء ﴿ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ بشراً سوياً.

قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: لم يؤديا شكرهما على الوجه المرضي بل أشركا في طاعة الله كما قال قتادة: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته، وذلك تسميته عبد الحارث، ثم استطرد من ذكر الشخص إلى الجنس، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتنزه الله عن إشراك كل مشرك به في عبادة وطاعة.

قوله: «اتفقوا» قال الشارح: الظاهر أن المراد أجمعوا.

قوله: «حاشا عبد المطلب» أي: فإنهم لم يتفقوا على تحريم التسمية به بل اختلفوا فيه فأجازه قوم محتجين بقوله: «أنا ابن عبد المطلب» ومنعه آخرون واستدلوا بما أورده الشيخ في هذا الباب، وبأن النبي ﷺ غير أسماء رجال عبدت لغير الله، وأجابوا عن قوله: «أنا ابن عبد المطلب» بأن هذا ليس إنشاء للتسمية وإنما هو إخبار بمن كان هذا اسماً له، ويجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء ألا ترى أنه يقال بني عبد شمس وبني عبدالدار ونحو ذلك؟

قوله: «قرني أيل» بفتح الهمزة وكسر التحتية المشددة ذكر الأوعال.

قوله: «سمياه عبد الحارث» قال سعيد بن جبير: كان اسمه في الملائكة الحارث.

فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾» [رواه ابن أبي حاتم، وله بسند صحيح عن قتادة، قال: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته].

وله بسند صحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

٥١ ـ باب قول الله تعالى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾

[الأعراف، الآية: ١٨٠].

(باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾)، أخبر ـ سبحانه ـ أن له أسماء وأنها حسنى أي قد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها ولا أكمل فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة النقص، فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا يعدل عما سمى به نفسه إلى غيره كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون، فعليك بمراعاة ما أطلقه ـ سبحانه ـ على نفسه من الأسماء والصفات وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته وحينئذ فيطلق المعنى دون اللفظ وهذا كلفظ الفاعل والصانع فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً كما أطلق على نفسه كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]. فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه وما يذم، فلهذا المعنى والله أعلم لم يجيء في الأسماء الحسنى المزيد كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها، و من هنا يعلم غلط بعض المتأخرين في اشتقاقه له ـ سبحانه ـ من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً وأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق له الماكر والمخادع والفاتن والمضل، ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، انتهى ملخصاً كثيراً من كلام ابن القيم.

وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الدعاء بها أحد مراتب إحصائها الذي قال فيه ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»** [رواه البخاري].

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، وهو نوعان: دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى كذلك لا يسأل إلا بها، فيسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فكيون السائل متوسلاً بذلك الاسم، تقول: رب اغفر لي وارحمني، إنك=

. . . .

=أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير ونحو ذلك، ملخص من كلام ابن القيم.

وروى الترمذي عن أبي هريرة عدها فقال طائفة من أهل العلم إنه مدرج من بعض الرواة.

وقال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح شيء منها.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: أما قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»، فالكلام جملة واحدة، وقوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل، والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينبغي أن يكون له أسماء غيرها كقولك لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد، فلا ينفي أن يكون له مماليك غيرهم أعدهم لغير الجهاد، اهـ.

ويدل عليه قوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

قال ابن القيم: فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسماً سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم؛ ولم ينزل به كتابه، وقسماً أنزل به كتابه وتعرف به إلى عباده، وقسماً استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ في حديث الشفاعة: «فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن» وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته ومنه قوله: «لا أحصي ثناء عليك».

وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال ابن القيم: الإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت؛ وهو أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسمية اللات من الإله ونحوه.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته أو علة فاعلة.

ثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: إنه استراح؛ وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]

رابعها: تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي ويقولون: لا سمع له ولا بصر ولا حياة ونحو ذلك.

الخامسة: تشبيه صفاته بصفات خلقه ـ تعالى الله عن الملحدين علواً كبيراً ـ، فجمعهم=

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: يلحدون في أسـمائه يشركون، وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

=الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسـوله وورثته القائمين بسـنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسـه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت لفظاً ولا معنى بل أثبتوا له الأسـماء والصفات؛ ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً؛ أو عطل حتى كأنه يعبد عدماً.

قوله: «ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس» قال الشارح: لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وإنما رواه عن قتادة.

قوله: «وعنه» أي عن ابن عباس، رواه ابن أبي حاتم عنه، وكذلك أثر الأعمش.

٥٢ ـ باب لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

(باب لا يقال: السلام على الله) أي: لأن السلام دعاء بالسلامة، والله هو المدعو وهو السلام، أي السالم من كل تمثيل ونقص.

قوله: «إذا كنا مع رسول الله ﷺ» إلى آخره، هذا في التشهد الأخير.

قوله: «فإن الله هو السلام» قال ابن القيم في كافيته:

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان

واختلف في معنى السلام المطلوب عند التحية فقيل: المعنى اسم السلام عليكم أي: نزلت بركة اسمه وحلت عليكم، وقيل: أي السلامة، قال ابن القيم: الصواب في مجموعهما؛ فتضمن اللفظ السلامة: ذكر الله وطلب السلامة. وهو مقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله وطلب السلامة منه. اهـ ملخصاً.

٥٢ ـ باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة: أن رســول الله ﷺ قال: «لايقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له».

ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة».

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

(باب قول: اللهم اغفر لي إن شــئت) أي: أنه لا يجوز لأنه يدل أو يوهم دعوى الاســتغناء عن مغفرة الله.

قوله: «اللهم اغفرلي إن شئت» قال القرطبي: إنما نهى رسول الله ﷺ عن هذا القول لأنه يدل على فتور الرغبة وقلة التهمم بالمطلوب، ويتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ويدل على قلة اكتراثه بذنوبه ورحمة ربه.

قوله: «ليعزم المسألة» قال القرطبي: أي ليجزم في مسألته وليحقق رغبته.

قولــه: «فإن الله لا مكره لــه» قال القرطبي: هذا إظهار لعدم فائدته تقييد الاســتغفار والرحمة بالمشيئة، فإن الله لا يضطره دعاء ولا غيره إلى فعل شيء بل يفعل ما يريد.

قوله: «وليعظم الرغبة» قيل: الطلبة والحاجة، وقيل: السؤال، أي: يلح فيه.

٥٤ ـ باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: «عبدي وأمتي».

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: «أطعم ربك».

الثالثة: تعليم الأول قول: «فتاي وفتاتي وغلامي».

الرابعة: تعليم الثاني قول: «سيدي ومولاي».

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

(باب لا يقول: عبدي وأمتي) أي: لما في ذلك من إيهام المشاركة في الربوبية، قاله الشارح.

قوله: «عن أبي هريرة» قال البغوي في شرح السنة: هذا حديث متفق على صحته، قيل إنما منع أن يقول: ربي؛ أو اسق ربك؛ لأن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد، فكره له المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، والعبد والحر فيه بمنزلة واحدة، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجماد فلا يمنع منه كقولك: رب الدار ورب الدابة، ولم يمنع أن يقول: سيدي ومولاي لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة على ما تحت يده، ولذلك سمي الزوج سيداً، فقال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] وقال النبي ﷺ للحسن: «إن ابني هذا سيد» والمولى كثير التصرف من ولي وناصر ومنعم وحليف ومعتق، وأصله من ولاية أمر وإصلاحه، فلم يمنع من أن يوصف به مالك الرقبة، على أنه جاء في رواية: «ولا يقل العبد مولاي» ومنع السيد من أن يقول: عبدي، لأن هذا الاسم من باب المضاف ومقتضاه العبودية له، وصاحبه عبد الله متعبده بأمره ونهيه؛ فإدخال مملوكه تحت هذا الاسم يوهم التشريك، ومعناه راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع، فلم يحسن لعبد أن يقول: فلان عبدي بل يقول: فتاي وإن كان قد ملك فتاه امتحاناً وابتلاءً من الله لخلقه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] وعلى هذا امتحان الله ـ تعالى ـ أنبياءه وأولياءه ابتلى يوسف بالرق ودانيال حين سباه بختنصر، اهـ. أملاه شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن أثابه الله ـ تعالى ـ.

٥٥ - باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً

(باب لا يرد من سأل بالله) أي: أن رده مكروه أو محرم إذا كان المطلوب ليس محرماً ولا مكروهاً لأن رده دليل على عدم إعظام الله، وقد جاء الوعيد على منع من سأل بالله أو بوجه الله، فروى الطبراني عن أبي موسى مرفوعاً: «ملعون من سَألَ بوجه الله، وملعون من سُئلَ بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا».

وعن أبي عبيدة مولى رفاعة بن رافع مرفوعاً: «ملعون من سَألَ بوجه الله، وملعون من سُئِلَ بوجه الله فمنع سائله» رواه الطبراني أيضاً.

وعن ابن عباس مرفوعاً: «ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل سُئِلَ بوجه الله ولا يعطي» [رواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الذي يُسْأَلُ بوجه الله ولا يُعطي» فهذه الأحاديث مع حديث الباب تدل على وجوب إعطاء من سأل بالله وإن كان السؤال في حقه مكروهاً أو محرماً.

قوله: «من استعاذ بالله فأعيذوه» أي: إذا قال: أعوذ بالله من شرك أو من شر فلان فامنعوا الشر عنه كقول الجونية: «أعوذ بالله منك» فقال: «لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك».

قوله: «ومن سأل بالله فأعطوه» أي: إذا قال: أسألك بالله أو بوجه الله كما في حديث ابن عباس: «من سألكم بوجه الله فأعطوه» [رواه أحمد وأبو داود].

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» أي: من دعاكم إلى طعام فأجيبوه، والحديث أعم من الوليمة وغيرها، وهو يدل على الوجوب.

قوله: «ومن صنع إليكم معروفاً» أي: أحسن إليكم فكافئوه على إحسانه ليخلص القلب من إحسان الخلق، لأنك إذا لم تكافىء من صنع إليك معروفاً؛ بقي في قلبك له نوع تأله، فشرع قطع ذلك بالمكافأة، هذا معنى كلام شيخ الإسلام. =

فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» [رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح].

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

= قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه» حذفت النون إما تخفيفاً أو سهواً من الناسخ. قاله الطيبي.

قوله: «فادعوا له» أي: إذا لم تقدروا على مكافأته فادعوا له.

وقد روى الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «من صُنعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

«تتمة» تنازعوا في إبرار المقسم هل يجب أو يستحب؟ فظاهر كلام الشيخ التفريق بين قصد الإلزام فيجب أو الإكرام فلا يجب، وأوجب الكفارة إذا لم يفعل المقسم عليه في الأولى دون الثانية اهـ.

٥٦ ـ باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» [رواه أبو داود].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات الوجه.

(باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) أي: أن ذلك لا يجوز، فأما سؤال المخلوق بوجه الله فحرام للأحاديث التي تقدمت في الباب قبله، وفيها لعن من سأل أحداً بوجه الله.

قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة».

قال الشارح: الظاهر أن المراد: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما هو وسيلة إليها.

وقال العراقي: وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام لا للتخصيص فلا يسأل بوجهه في الأمور الدنية بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً، والحديث أحق مما قال.

٥٧ - باب ما جاء في اللو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨].

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك،

(باب ما جاء في اللو) أي: من الذم لمن عارض بها أقدار الرب ـ تعالى ـ إذا لم توافق مراده وهواه، وهذا مضاد لكمال التوحيد.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ قال ابن كثير: فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ اهـ.

فتبين أن هذا من كلام المنافقين وهو معارضة القدر بلو، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ وهذا معارضة للقدر من المنافقين بقولهم لمن خرج مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قيل: وإنما قال: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لمشاركتهم لهم في الظاهر، وقيل إخوانهم في النسب لا في الدين؛ لو أطاعونا في مشورتنا عليهم بعدم الخروج ما قتلوا.

﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: إن عدم الخروج لا ينجي من الموت فإن كنتم صادقين فادفعوا الموت إذا جاءكم بل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

قوله: «احرص على ما ينفعك» أول الحديث: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك» إلخ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من=

واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

=ذلك فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

قوله: «**واستعن بالله**» قال ابن القيم: لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجمع له بين مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فإنَّ حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونة الله، فأمره أن يعبده وأن يستعين به.

قوله: «**ولا تعجزن**» قال ابن القيم: العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي الاستعانة بالله، فالحريص على ما ينفع المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه؛ فإذا وقع المقدور فللعبد حالتان: حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة فيها، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والحزن، وهذا من عمل الشيطان، فنهاه عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر لم يفته ولم يغلبه عليه أحد.

ولهذا قال: «**وإن أصابك شيء**» أي: غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل الجهد والاستعانة بالله «**فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه حالة حصول مطلوبه وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب اهـ، ببعض تصرف.

فأما قوله: «**لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم**».

وقوله: «**لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمت هذه**»، «**ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك**» وشبه ذلك فأجاب القاضي عياض بأن هذا كله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ولا كراهة فيه؛ لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته؛ فأما ما ذهب فليس في قدرته، وكذا قوله: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**» فليس من المنهي عنه بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدر، اهـ ملخصاً.

فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر، فإن معناه: لو وفقت لهذا القدر لا ندفع عني ذلك القدر.

قيل: هذا حق لكن لا ينفع بعد وقوع المقدور.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعاذة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

٥٨ ـ باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «لاتسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» [صححه الترمذي].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

(باب النهي عن سب الريح) أي: لأنها في تدبير مدبر، فسبها اعتراض عليه، وهو قدح في التوحيد.

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون» أي: من الريح من شدة برودة أو حرارة أو قوة، وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب فلا تسبوها ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا من شرها».

وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «لاتلعنوا الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه» [رواه الترمذي وقال: غريب].

وروى البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

٥٩ ـ باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: «فسر هذا الظن بأنه ـ سبحانه ـ لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار

(باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾)، قال الشارح: أراد المصنف التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد.

قال ابن القيم: أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ فليس مقصودهم من الكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله لله، ولو كان ذلك مقصودهم لما ذموا عليه، ولما حسن الرد عليهم بقوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل ها هنا هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله ـ عز وجل ـ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفوذ القضاء والقدر أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به كتابه السابق.

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ قال ابن كثير: أي يتهمون الله في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝﴾.

قوله: فسرهذا الظن بأنه ـ سبحانه ـ لا ينصر رسوله ـ قال الشارح ـ: هذا تفسير غير واحد من المفسرين وهو مأخوذ من تفسير قتادة والسدي، ذكر ذلك عنهما ابن جرير وغيره بالمعنى. =

الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء، الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا الظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به ـ سبحانه ـ وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أن يديل الباطل على الحق إدالةً مستقرةً يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا

قوله: «وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر» ذكره القرطبي عن ابن عباس.

قوله: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم» إلخ، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: غالب بني آدم إلا من شاء الله يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحق، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكر ولا يتجاسر على التصريح به، فليعتني اللبيب بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الظلم والجهل، فهو أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى:

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً ... وكيف بظالم جان جهول

قوله: «ولو فتشت ما فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا» إلخ، قال ابن عقيل: الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب والفضة وداراً مشيدة مملوءة بالخدم والزينة قال: انظروا ما أعطاهم مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم حتى يقولوا فلان يصلي الجماعات والجمع ولا يؤذي الذر ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال ويظهر الإعجاب كأنه ينطق: لو كانت الشرائع حقاً لكان الأمر بخلاف ما نرى وكان الصالح غنياً، والفاسق فقيراً. =

يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثرٌ، وفتش نفسك: هل أنت سالم»؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

=وقال ابن الجوزي: دخلت على صدقة بن الحسين الحداد وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض، وكان عليه جرب فقال: هذا ينبغي أن يكون على جمل لا عَلَيَّ، وكان رجل يصحبني قد قارب ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم فمرض واشتد به المرض فقال: إن كان يريد أن أموت فيميتني، وأما هذا التعذيب فما له معنى، والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً، وعلى هذا كثير من العوام، إذا رأوا رجلاً صالحاً به أذى قالوا: «ما يستحق» قدحاً في القدر، واعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً على الخالق بالتحكم عليه، وهؤلاء كلهم كفرة لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة، وإذا كان توقف القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ يخرج عن الإيمان قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله؟

قوله: «فإن تنج منها» أي: من هذه الخصلة «تنج من ذي عظيمة» أي: من شر عظيم، وإخالك بكسر الهمزة أي: لا أظنك ناجياً.

٦٠ ـ باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: «والـذي نفس ابن عمر بيده، لـو كان لأحـدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

(باب ما جاء في منكري القدر) أي من الوعيد.

قال شيخ الإسلام: مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السـابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شـيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسـها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه ـ سـبحانه ـ ما شـاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شـيء إلا بمشـيئته، وقدرته، ولا يمتنع عليه شيء شاءه بل قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا هو قادر عليه، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكـون، وقد دخل فـي ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من شقاوة وسعادة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شـيء وقدرته على كل شيء، ومشـيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكـون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون. وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمر ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه بل الأمر أنف أي مستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإسـلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية ابن أبي سفيان في أواخر عصر عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس وغيرهما من الصحابة وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة معبد الجهني.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: مراتب القضاء والقدر أربع مراتب:

الأولى: علم الرب ـ سبحانه ـ بالأشياء قبل كونها.

الثانية: كتابته ذلك عنده في الذكر قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن عنها كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه لها وإيجاده وتكوينه، ذكره الشارح بمعناه.

قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده» لفظ مسلم: «والذي يحلف به عبد الله بن عمر». =

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

= قال شيخ الإسلام بعد ذكره: وكذا كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون.

«ثم استدل بقول النبي ﷺ» إلخ، لأنه جعل الإيمان بالقدر سادس الأصول للإيمان فمن أنكره فليس بمؤمن، بل ولا مسلم، فلا يقبل عمله.

قوله: (رواه مسلم) أي عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد الطويل حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أن الأنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر؛ ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، الحديث بطوله في الإسلام والإيمان والإحسان، قال شيخ الإسلام: جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان؛ وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً؛ كما دلت عليه الأحاديث، فالإحسان يدخل فيه الإيمان؛ والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين.

قال شيخنا: وحينئذ يتبين أن الإيمان الكامل الذي صاحبه يستحق عليه دخول الجنة والنجاة من النار هو فعل الواجبات وترك المحرمات، وهو الذي يطلق على من كان كذلك بلا قيد، وهو الإيمان الذي يسميه العلماء الإيمان المطلق، وأما من لم يكن كذلك بل فرط في بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات فإنه لا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته أو مؤمن ناقص الإيمان لكونه ترك بعض واجبات الإيمان اهـ.

وحيث أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر، ذكره ابن رجب وغيره وذكره شيخ الإسلام في كتاب الإيمان الصغير، وأما في الكبير فذكر أن الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وسكت عن عكسه، وأما عند الاقتران فيفسر الإيمان بأعمال القلوب، والإسلام بالأعمال الظاهرة، هذا=

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» [رواه مسلم].

وعن عبادة بن الصامت: «أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال:

=معنى تقرير شيخنا أثابه الله ـ تعالى ـ.

وأما قوله: «خيره وشره» فإثبات الشر في القضاء إنما هو بالإضافة إلى العبد والمفعول، إذا كان يقدر عليه بسبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق، فله في ذلك من الحكم ما تقصر عنه أفهام البشر؛ لأن الشر إنما هو الذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة؛ وهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الخالق ـ سبحانه ـ فكله خير وحكمة فإنه صادر عن حكمته وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب ـ سبحانه ـ، إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولا تعارض بينه وبين قوله: «والشر ليس إليك» لأن معناه أنه يمتنع إضافة الشر إليك بوجه من الوجوه فلا يضاف الشر إلى ذاته ولا إلى صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، هذا معنى كلام ابن القيم بتصرف واختصار.

قوله: «أنه قال لابنه» وهو الوليد بن عبادة صرح به الترمذي.

وفي رواية: قوله: «حتى تعلم» إلى آخره، هذا هو حقيقة الإيمان بالقدر.

قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» قال شيخ الإسلام: قد ذكرنا عن السلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين كما ذكر ذلك الحافظ أبو العلا الهمداني وغيره.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ وعفى عنه.

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديَّانِ
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان
لما براه الله قال اكتب كذا ... فغدا بأمر الله ذا جريان

قال: ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره: إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه: عند أول خلقه قال له: اكتب كما في اللفظ الآخر: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» بنصب «أول والقلم» فإن كان جملتين وهو مروي برفع «أول والقلم» فيتعين حمله على أنه أول مخلوقاته من هذا العالم ليتفق الحديثان، إذ حديث عبدالله=

اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: **«إن أول ما خلق الله ـ تعالى ـ القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة».**

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: **«فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».**

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي، قال: **«أتيت أبي بن كعب، فقلت: في**

=بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له: اكتب» انتهى. ويدل على تقدم خلق العرش على القلم ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا محمد بن كثير العبدي حدثنا سفيان الثوري حدثنا هاشم عن مجاهد عن ابن عباس قال: الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فكان أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن، وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه.

(تنبيه) إذا نصب «أول والقلم» فأول على الظرفية، والقلم على المفعولية، وإذا رفعا فأول مبتدأ والقلم خبره.

قوله: «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» قال شيخ الإسلام: وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وهذا يتبين أنه إنما أمرحينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة، لم يكتب حينئذ ما يكون بعد ذلك.

قوله: «وفي المسند» أي: لأحمد «والسنن» أي لأبي داود وابن ماجه، ولفظ ابن ماجه عن أبي الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد علي ديني وأمري، فأتيت أبي بن كعب فقلت له: أبا المنذر إنه وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت أن يفسد علي ديني وأمري فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به، فقال: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود فتسأله، فأتيت عبد الله بن مسعود فسألته فذكر مثل ما قال أبي وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة فأتيت حذيفة، فسألته فقال مثل ما قالا؛ فقال: ائت زيد بن ثابت فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ=

نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ» [حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه].

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

=يقول: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، لو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار».

قوله: «وقع في قلبي شيء من القدر» أي: اضطراب.

قوله: «لو أنفقت مثل أحد» أي: أو أكثر من ذلك.

(تتمة) قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: القدر قدرة الله. قال شيخ الإسلام: يشير إلى أن من أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، وأنه يتضمن إثبات قدرة الله على كل شيء؛ ولهذا جعل الأشعري وغيره أخص وصف الرب قدرته على الاختراع، والتحقيق أن القدرة على الاختراع من جملة خصائص صفاته ليست هي وحدها أخص صفاته.

٦١ ـ باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ تعالى ـ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرةً، أو ليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا شعيرةً» [أخرجاه].

ولهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورةٍ صورها نفس يعذب بها في جهنم».

(باب ما جاء في المصورين).

قوله: «فليخلقوا ذرة» هذا تعجيز؛ أي فليخلقوا ذرة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي خلقها الله. وكذلك قوله: «حبة أو شعيرة» أي: حبة حنطة فيها طعم تؤكل وتزرع وتنبت، ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من الحب الذي يخلق الله، وأنى لهم السبيل إلى ذلك؟ بل الله هو المتفرد بذلك، لا خالق غيره ولا إله سواه، علقه الشارح على نسخته.

قوله: «أشد الناس عذاباً» إلخ، قال النووي ـ رحمه الله ـ: قيل هذا محمول على صانع الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها، فهذا كافر، وهو أشد الناس عذاباً، وقيل: هو فيمن قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله واعتقد ذلك فهو كافر أيضاً، وله من شدة العذاب ما للكفار ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره، فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير لا يكفر كسائر المعاصي.

قوله: «كل مصور في النار» أي: لذي روح؛ لتعاطيه ما يشبه ما انفرد الله به من الخلق والاختراع.

قوله: «يجعل» هو بفتح الياء التحتية أي يجعل الله، وقيل: بضم الياء.

قوله: «بكل صورة» أي: تعذبه نفس الصورة بأن يجعل فيها روح، والباء في «بكل» بمعنى «في» أو يجعل له بعدد كل صورة شخص يعذبه، فالباء بمعنى لام السبب، وهذا الأحاديث=

ولهما عنه مرفوعاً: «من صور صورةً في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع صورةً إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

=صريحة في تحريم صورة الحيوان وأنه غليظ التحريم، وأما الشجرة ونحوه مما لا روح فيه فلا تحرم صنعته ولا التكسب به، وسواء الشجر المثمر وغيره، وهذا مذهب العلماء كافة إلا مجاهد، واحتج لمجاهد بقوله: «ومن أظلم» الحديث، واحتج الجمهور بقوله: «فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم» أي اجعلوه حيواناً ذا روح كما ضاهيتم عليه، ويؤيده قول ابن عباس: إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له، علقه الشارح.

قوله: «إلا طمستها» أي: أزلتها ومحوتها، فهو مشروع، ويجب منه إزالة ما لا تبقى معه حياة.

قوله: «مشرفاً» أي: مرتفعاً.

٦٢ - باب ما جاء في كثرة الحلف

وقوله الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقةٌ للسلعةِ، ممحقةٌ للكسب» [أخرجاه].

عن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» [رواه الطبراني بسند صحيح].

(باب ما جاء في كثرة الحلف) أي: من الذم لمن كان كذلك.

وقـــول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾، قال ابن جرير: أي: لا تتركوها بغير تكفير؛ وفي تفسير الجلالين: لا تنكثوها ما لم تكن على فعل بر اهـــ، و فيها وجوب حفظ الأيمان، والتحرز من اعتيادها، والإكثار منها.

قوله: «منفقة للسلعة» أي: مظنة لنفاقها، وهو ضد كسادها.

قولـــه: «ممحقة للكســب» أي: مظنة للمحـــق، وهو النقص والمحو والنقــص والإبطال علقه الشارح.

قوله: «أشيمط» الشمط: الشيب.

قوله: «وعائل» أي: فقير ذو عيال؛ وذلك لأن الشـــيخ قد زالت عنه شـــهوته وضعفت قوته، فزناه دليل على جبلته على الفســـاد، والتكبر ينقسم قسمين: ذاتي وصفاتي، فالصفاتي من المال والجاه، فالتكبر من الناس وإن كان قبيحاً عقلاً وشـــرعاً لكن أصحاب المال والجاه لهم فيه عذر ما، وأما عادمها فلا عذر له بوجه؛ فالتكبر إذاً صفة ذاتية، علقه الشارح.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته» هذا محل الترجمة.

قوله: «قرني» القرن أهل عصر متقاربة أسنانهم، مشتق من الاقتران في الأمر الذي يجمعهم، ويقـــال: لا يكـــون قرناً حتى يكون في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة أو رأي أو مذهب، قاله الزركشي الشـــافعي، قيل: وزمانه ثمانون سنة، وقيل: ستون، وقيل: ما بقيت عين رأته، وقيل: مائة، وقيل: ســـبعون، وقيل: أربعون، و قيل: عشر سنين، وقيل: من عشر سنين إلى=

وفي الصحيح عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ «ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن».

وفيه عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار.

=مائة وعشرين.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً» قال القرطبي: ما شك فيه عمران تحقيقه في حديث ابن مسعود بعد قرنه ثلاثاً.

قوله: «يشهدون ولا يستشهدون» لا يعارض حديث: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» لأن الأول في حقوق الآدميين وهذه في حقوق الله التي لا طالب لها، وقيل: الأول في الشهادة على الغيب في أمر الخلق فيشهد أنهم من أهل النار، والآخرين بغيره، وقيل: أي يتحملون الشهادة من غير تحميل.

قوله: «ويخونون ولا يؤتمنون» أي: لخيانتهم الظاهرة بحيث لا يعتمد عليهم.

قوله: «وينذرون ولا يوفون» لا يعارض حديث النهي عن النذر، وإنما هو تأكيد لأمره، وتحذير من التهاون به بعد إيجابه.

قوله: «ويظهر فيهم السمن» أي: يحبون التوسع في المآكل والمشارب، وهي أسباب السمن، وفي الحديث: «يكون قوم في آخر الزمان يتسمنون» أي: يتكثرون بما ليس فيهم، ويدعون ما ليس لهم من الشرف، وقيل: جمعهم الأموال اهـ.

قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه» إلخ، إشارة إلى التسارع في الشهادة واليمين، وهذا من أعلام نبوته فإنه قد وجد ذلك كما أخبر ﷺ.

قوله: «كانوا» الظاهر أن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود كما هي عادة إبراهيم في النقل عنهم، وإنما فعلوا ذلك لئلا يعتادوا إلزام أنفسهم بالعهد لما يلزم الحالف من الوفاء أو الكفارة، وربما أثم بترك ذلك، وكذلك الشهادة فإنه إذا اعتادها حال صغره سهلت عليه، فربما أداه ذلك إلى التساهل حال كبره.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

٦٣ - باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: «اغزوا بسم الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولاتقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم،

(باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه) أي: من الدليل على وجوب الوفاء بها وإتمامها إذا أعطيت أحداً. والذمة العهد.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ في تفسير الجلالين: أي: من البيع والأيمان وغيرهما. وقال البغوي ـ رحمه الله ـ: العهد هاهنا اليمين. وقال الثعلبي: العهد يمين وكفارة يمين. ومراد المصنف ما يكون بين الناس من الذمة أنه يجب الوفاء بذلك، وهو فرد من أفراد معنى الآية، فهي دالة على وجوب الوفاء به، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ونكث العهد دليل على عدم تعظيم الله، فهو قادح في التوحيد.

قوله: «سرية» هي: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، قاله الحربي.

قوله: «ومن معه من المسلمين خيراً» أي: ووصاه بمن معه من المسلمين أن يفعل معهم خيراً.

قوله: «اغزوا» أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مجيبين له.

قوله: «قاتلوا من كفر بالله» هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وخصص منه من له عهد والرهبان والنسوان ومن لم يبلغ الحلم، لأنه لا يكون منهم قتال غالباً، فإن حصل قتلوا.

قوله: «لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا» الغلول الأخذ من الغنيمة من غير قسمها، والغدر نقض العهد، والتمثيل التشوية بالقتيل كجدع أنفه وأذنه ونحو ذلك، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر وكراهة المثلة.

=

ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله ـ تعالى ـ ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة

= قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» كذا وقعت الرواية في جميع نسخ صحيح مسلم بزيادة «ثم» والصواب إسقاطها كما روى أبو داود وأبو عبيد في كتاب الأموال، لأن ذلك يوهم ابتداء بغير الثلاث الخصال، وقال المازردي: ليست «ثم» زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين» يعني المدينة، وذلك مستحب إذا أسلموا، أو واجب في أول الأمر على كل من أسلم، أو على أهل مكة خاصة من أسلم منهم قبل الفتح، وأما بعد الفتح فقال ﷺ: «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

قوله: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين» إلخ، أي: في استحقاق الفيء والغنيمة وغير ذلك، وإلا فهم كسائر أعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ولا غزو، فتجري عليهم أحكام الإسلام، ولا حق لهم في الغنيمة والفيء وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا مستحقين. قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: الصدقات للمساكين ونحوهم ممن لا حق له في الفيء، والفيء للأجناد، قال: ولا يعطى أهل الفيء من الصدقات، ولا أهل الصدقات من الفيء. وقال مالك وأبوحنيفة: المالان سواء، ويجوز صرف كل منهما إلى النوعين.

قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» استدل به مالك والأوزاعي على جواز أخذ الجزية من كل كافر عربياً كان أو أعجمياً، كتابياً كان أو مجوسياً، ورجحه ابن القيم. وقال أبوحنيفة: تؤخذ من جميع الكفار إلا مشركي العرب ومجوسهم. وقال الشافعي: لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس عرباً كانوا أو عجماً؛ ويحتج بمفهوم آية الجزية، وبحديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن» إلخ، الذمة العهد، وأخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرته أمنته وحميته، وهذا نهي تنزيه أي لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها كبعض الأعراب وسواد الجيش ونحو ذلك، فكأنه يقول: إن وقع نقض عهد من متعدّ أو جاهل كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الخالق ـ تعالى ـ. =

أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله؛ ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» [رواه مسلم].

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

= قوله: «فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله» فيه دليل على أنه ليس كل مجتهد مصيباً بل المصيب واحد وهو الموافق لحكم الله في نفس الأمر. نقلت الكلام على هذا الحديث من خط الشارح، وذكر أنه نقله من القرطبي والنووي.

(تنبيه) إذا أسلم الإنسان دون أهل بلاده فإنه تجب عليه الهجرة إلى بلاد الإسلام إذا قدر على ذلك ولم يقدر على إظهار دينه. قال الشيخ منصور بعد قول المنتهى: «وتجب الهجرة» إلخ، وعلم مما تقدم بقاء حكم الهجرة لحديث: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه أبو داود].

وأما قوله: «لا هجرة بعد الفتح» أي: من مكة، ومثلها كل بلد فتح، لأنها لم تبق بلد كفر.

٦٤ ـ باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفـر الله لفـلانٍ، فقال الله ـ عز وجل ـ: مـن ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك» [رواه مسلم].

وفـي حديث أبي هريـرة: «أن القائل رجلٌ عابدٌ»، قـال أبوهريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» إلى آخره.

الخامسة: أن الرجل قد يغفرله بسبب هو من أكره الأمور إليه.

(بـاب ما جاء في الإقسـام على الله) أي: أن ذلك حـرام إذا كان على جهة الحجر على الله والقطع بحصول المقسم على حصوله وهو التألي؛ فأما على جهة حسن الظن بالله فقد قال ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» كذا ظهر لي والله أعلم.

قولـه: «ولا يغفر الله لفلان» ظاهر في قطعه بـأن الله لا يغفر لذلك الرجل، وكأنه حكم على الله وحجر عليه لما اعتقد له عنده من الكرامة والحظ والمكانة ولذلك المذنب من الخسة والإهانة، وهذا نتيجة الجهل بأحكام الإلهية والربوبية، علقه الشارح.

قوله: «يتألى» قال شـيخ الإسـلام: التألي من الألية وهي اليمين، يقال: تألى وآلى وأتلى، أملاه شيخنا.

قوله: «من ذا الذي يتألى عليَّ» اسـتفهام على جهة الإنـكار والوعيد، وفي هذا الحديث تحريم الإدلال على الله، ووجوب التأدب معه في الأقوال والأحوال، وإن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ويعامل ربه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية، انتهى من تعليق الشارح.

٦٥ ـ باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله، سبحان الله! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد**» وذكر الحديث [رواه أبو داود].

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال «نستشفع بالله عليك».

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير: «**سبحان الله**».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

(باب لا يستشفع بالله على خلقه) أي: أن ذلك حرام لأنه الكبير المتعال، فكيف يشفع عند أحد من خلقه؟ ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، فإن الشافع إنما يشفع عند من هو أعلا منه، فهذا من أعظم التنقص لرب العالمين، فلذلك استعظمه رسول الله ﷺ. وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي وجرة يزيد بن عبيد السلمي قال: لما قفل رسول الله من غزوة تبوك أتاه وفد من بني فزارة فقالوا: يا رسول الله ادع ربك أن يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، ويشفع ربك إليك؛ فقال رسول الله ﷺ: «**ويلك أنا أشفع إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا الله العلي العظيم وسع كرسيه السموات والأرض، فهي تئط من عظمته كما يئط الرحل الجديد**».

قال الشارح: أبو وجرة تابعي اهـ. فالحديث مرسل.

٦٦ ـ باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسدِّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير ـ رضي الله عنه ـ، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «**السيد الله ـ تبارك وتعالى ـ**»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «**قولوا: بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**» [رواه أبو داود بسند جيد].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا**

(باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك).

قوله: «السيد الله» قال الخطابي: يريد ـ عليه السلام ـ أن السؤدد حقيقة لله ـ عز وجل ـ، وأن الخلق كلهم عبيد له إلى أن قال: فعلمهم الثناء ـ عليه السلام ـ وأرشدهم إلى الأدب في ذلك؛ وقال ـ عليه السلام ـ: «قولوا بقولكم» يريد قولوا بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبياً ورسولاً كما سماني الله في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ولا تسموني سيداً كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدهم إذ كانوا يسودونكم في أسباب الدنيا وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة فسموني رسولاً ونبياً.

قوله: «أو بعض قولكم» فيه حذف واختصار ومعناه: دعوا بعض قولكم واتركوه، يريد بذلك الاقتصاد في المقال.

وقوله ـ عليه السلام ـ: «لايستجرينكم الشيطان» معناه: لايتخذنكم جرياً، والجري الوكيل، ويقال الأجير اهـ. كلام الخطابي.

وقال شيخنا: الذي وقع في نسخ التوحيد الصحيحة بخط المصنف وغيره: «ولا يسخرنكم الشيطان» بالياء المثناة تحت والسين المهملة والخاء المعجمة بعدها راء ثم نون، وعزا الحديث لأبي داود، والذي وجدناه في نسخ أبي داود الصحيحة المعتمدة «يستجرينكم» بالتاء المثناة فوق بعد السين ثم جيم؛ ثم مثناة تحتية بعد الراء ثم نون؛ قال في النهاية: «لا يستجرينكم الشيطان»: =

محمد، عبد الله ورسـوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ـ عز وجل ـ»

[رواه النسائي بسند جيد].

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: «لايستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

=أي: لا يسـتغلبنكم فيتخذكم جرياً أي: رسـولاً وكيلاً، وذلك أنهـم كانوا مدحوه فكره لهم المبالغـة في المدح، فنهاهم عنـه، يريد تكلموا بما يحضركم من القول ولا تتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون على لسانه انتهى، وهذان الحديثان وما شابههما دليل على الأدب.

وقوله: «أنا سيد ولد آدم» وشبهه دليل على جواز.

٦٧ـ باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]

(باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾)، قال ابن جرير: يقول ـ تعالى ـ ذكره: وما عظم الله حق عظمته هؤلاء المشركون بالله الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان، ثم روى بسنده عن ابن عباس قال: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.١ هـ.

وأما قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى» الحديث ذكره المصنف.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» [رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وابن جرير وعبد بن حميد].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية ورسول الله ﷺ يقول: «هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه: أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به» [رواه أحمد وهذا لفظه والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي] علقهما الشارح.

وقال شيخنا: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات (باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين لورود خبر الصادق به) قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وذكر الأحاديث الصحيحة في هذا الباب مثل قوله: في حديث الشفاعة: «يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده» ومثل قوله: في الحديث المتفق عليه: «أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده».

وقوله: ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته».

=

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع» [أخرجاه].

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم».

= وقوله: «وروي عن ابن عباس» ورواه معاذ بن هشام الدستوائي حدثنا أبي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: إن السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله ـ عز وجل ـ إلا كخردلة في يد أحدكم.

قال الشارح: وهذا الإسناد في نظري صحيح، قال: وحديث زيد بن أسلم رواه أيضاً أصبغ بن الفرج بهذا الطريق واللفظ وهو مرسل، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف.

وقوله: «وقال أبوذر» قال الشارح: يوهم أن ذلك عطف على قول زيد قال رسول الله ﷺ وليس كذا فيما ظهر لي فإن حديث أبي ذر هذا رواه يحيى بن سعيد العبشمي أنبأنا ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي آية أعظم؟ قال: «آية الكرسي، وما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»، قال الذهبي: يحيى بن سعيد هو الأموي صدوق؛ وإلا فهو آخر لا أعرفه. =

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعةٍ ألقيت في ترس»**.

قال: وقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما الكرسي في العرش إلا كحلقةٍ من حديدٍ ألقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرض»**.

وعن ابن مسعودٍ قال: **«بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائةِ عامٍ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عامٍ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عامٍ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عامٍ، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»**

[أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرٍ عن عبد الله].

= وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات وابن مردويه عن أبي ذر أنه قال: سئل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال: **«يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»** وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو الشيخ والبيهقي عن مجاهد قال: ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وما موضع كرسيه من العرش إلا مثل حلقة في أرض فلاة. وأخرج أثر ابن مسعود الثاني عبد الله ابن أحمد في كتاب السنة وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وأبو عمر الطلمنكي واللالكائي وابن عبد البر والبيهقي وغيرهم، قاله الشارح.

قوله: **«والله فوق ذلك»** أي: فوق جميع المخلوقات مستوٍ على عرشه ـ سبحانه ـ وبحمده، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، علو الذات وعلو القهر وعلو القدر: هذا مذهب أهل السنة والجماعة الذي اجتمعوا عليه وبدعوا وضللوا من خالفه من الجهمية النافية؛ وعليه يدل الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، وذكر ابن القيم له مائة دليل من القرآن في كافيته، واستدل عليه بأحدى وعشرين وجهاً، وذكر عليه إجماع المسلمين، وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا جاء عن أحد من السلف المقتدى بهم حرف واحد يخالفه، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [سورة فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] في ستة مواضع: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ=

ورواه بنحوه المسعودي عن عاصمٍ عن أبي وائلٍ عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي رحمه الله ـ تعالى ـ، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماءٍ مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله ـ تعالى ـ فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم»** [أخرجه أبو داود وغيره].

= ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٥ـ ٣٦]، ونظائر هذا لا تحصى إلا بكلفة، وفي الأحاديث قصة المعراج ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه.

وقوله: في حديث الأوعال: **«والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه»** وحديث الجارية: **«أين الله؟»** قالت: في السماء وقال: **«من أنا؟»** قالت: أنت رسول الله قال: **«فأعتقها فإنها مؤمنة»** وفي حديث قبض الروح: **«حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله»** إلى غير ذلك من الأحاديث التي بعضها يكفي من طلب الإنصاف وأراد الله به خيراً. قال ابن قتيبة: ما زالت الأمم عربها وعجمها في جاهليتها وإسلامها معترفة بأن الله في السماء، وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن عبد الله بن المبارك أنه قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، وروى ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية عن سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علماً وديناً من شيوخ الإمام أحمد أنه ذكر عنده الجهمية فقال: هم أشر قولاً من اليهود والنصارى؛ وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان على أن الله على العرش وقالوا هم: ليس عليه شيء. وقال محمد بن إسحاق إمام الأئمة: من لم يقل إن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فإن تاب وإلا ضرب عنقه ثم ألقي على مزبلة من المزابل لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة، ذكره عنه الحاكم بإسناد صحيح.

وفي كتاب الفقه الأكبر المشهور المروي عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي قال: سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض، قال: قد كفر لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ وعرشه فوق سماواته: فقلت: إنه يقول: أقول: على العرش=

=استوى ولكن لا أدري العرش في السماء أو في الأرض، فقال: إنه إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر، روى هذا أبو إسماعيل صاحب الفروق.

وقال الموفق بن قدامة: بلغني عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه قال: من أنكر أن يكون الله ـ عز وجل ـ في السماء فقد كفر، وروى عبد الله بن أحمد عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك ابن أنس: الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء.

وروى أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحض ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأُمر به أن يُخرج.

وروى شيخ الإسلام أبو الحسن البكاري عن أبي شعيب وأبي ثور كلاهما عن محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ قال: القول في السنة التي أنا عليها وأدركت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء، وذكر سائر الاعتقاد.

وروى الخلال في كتاب السنة حدثنا يونس بن موسى قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: قال لي أبي: ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان.

وقال الإمام أبو محمد بن أبي زيد المغربي القيرواني شيخ المالكية في وقته في أول رسالته المشهورة في مذهب مالك: وأنه ـ تعالى ـ فوق عرشه المجيد بذاته، وأنه في كل مكان بعلمه.
قال الإمام أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد لما ذكر قوله: وأنه ـ تعالى ـ فوق عرشه المجيد، معنى فوق وعلا واحد عند جميع العرب، ثم ساق الآيات والأحاديث إلى أن قال: وقد تأتي لفظة «في» في لغة العرب بمعنى فوق كقوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك١٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، قال أهل التأويل: يريد فوقها وهو قول مالك مما فهمه من التابعين مما فهموه من الصحابة مما فهمو عن النبي ﷺ أن الله في السماء يعني فوقها، فلذلك قال الشيخ أبو محمد: إنه فوق عرشه ثم بين أن علوه فوق عرشه إنما هو بذاته فلا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها اهـ كلام الشارح.

وذكر عن ابن أبي زيد في كتابه الفرد في السنة في تقرير العلو واستواء الرب على العرش بذاته وقرره أتم تقرير. وقال في مختصر المدونة: إنه ـ تعالى ـ فوق عرشه بذاته فوق سماواته=

=دون أرضه.

وقال الحافظ الذهبي لماذكر قول ابن أبي زيد: وأنه ـ تعالى ـ فوق عرشه المجيد بذاته، وقد تقدم مثل هذه العبارة عن ابن أبي شيبة وعثمان بن سعيد الدارمي، وكذلك أطلقها يحيى بن عمار واعظ سجستان في رسالته والحافظ أبو نصر السجزي في كتاب الإبانة فإنه قال: وأئمتنا كالثوري ومالك والحمادين وابن عيينة وابن المبارك والفضيل وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان، وكذلك أطلقها ابن عبد البر، وكذا عبارة شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري فإنه قال في أخبار شتى: إن الله في السماء السابعة على العرش بنفسه، وكذا قال أبو الحسن الكرخي الشافعي في تلك القصيدة:

عقائدهم أن الإله بذاته ... على عرشه مع علمه بالغوائل

وعلى هذه القصيدة مكتوب بخط العلامة تقي الدين بن الصلاح: وهذه عقيدة أهل السنة وأهل الحديث.

وهكذا أطلق هذه اللفظة أحمد بن ثابت الطرقي الحافظ، والشيخ عبد القادر الجيلي، والمفتي عبد العزيز القحيطي وطائفة، والله ـ تعالى ـ خالق كل شيء بذاته، ومدبر الخلائق بذاته بلا معين ولا مؤازر، وإنما أراد ابن أبي زيد وغيره التفرقة بين كونه معنا وبين كونه فوق العرش، فهو معنا بالعلم، وهو على العرش كما علمنا حيث يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ وقد لفظ بالكلمة المذكورة جماعة من العلماء كما قدمنا، وبلا ريب أن فضول الكلام تركه من حسن الإسلام.

وكان ابن أبي زيد من العلماء العاملين بالمغرب، وكان يلقب بمالك الصغير، وكان غاية في معرفة الأصول، وقد نقموا عليه في قوله: «بذاته» فليته تركها، انتهى كلام الذهبي.

توفي ابن أبي زيد سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وقيل سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ـ رحمه الله ـ، ومن كلام أبي حنيفة إلى هنا نقلته من رسالة الشيخ أحمد بن ناصر المعمري ـ رحمه الله ـ وعفا عنه.

فأما تأويل الاستواء بالاستيلاء ونحو ذلك فمن أبطل الباطل، وأظهر التحريف للكلم عن مواضعه، قال شيخ الإسلام: وبطلان تأويل استوى بمعنى استولى من وجوه.

أحدها: أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين، بل أول من قال ذلك بعض الجهمية، والمعتزلة.

الثاني: أن معنى هذه الكلمة مشهور، ولهذا قال مالك لمن سأله وكذلك ربيعة بن عبدالرحمن: =

=الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ولم يرد أن الاستواء معلوم في اللغة دون الآية لأنه سئل عن الاستواء في الآية لا كيف استوى الناس.

الثالث: أنه إذا كان معلوماً في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوماً في القرآن.

الرابع: أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج أن يقول: الكيف مجهول، لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله كما نقول: إنا نقر بالله ونؤمن به ولا نعلم كيف هو.

الخامس: أنه لو كان استوى بمعنى استولى الذي هو عام في جميع الموجودات لجاز أن يقال: استوى على الماء والهواء والأرض إذ هو مستولٍ على الأشياء كلها، فلما اتفق المسلمون أنه مستوٍ على العرش ولا يقال استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال استولى على العرش والأشياء كلها علم أن معنى الاستواء خاص بالعرش ليس عاماً.

السادس: أنه أخبر بخلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في البخاري من حديث عمران بن حصين، فلما ثبت خلق العرش قبل خلق السماوات وأن الاستواء متأخر عن خلقهن، والله مستولٍ على العرش قبل خلق السماوات وبعده علم أن الاستواء على العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره.

السابع: أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمنعى استولى إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور:

ثم استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

ولم يثبت نقل صحيح أنه عربي ولا غيره وغير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: بيت مصنوع لا يعرف في اللغة. وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده ـ وقد طعن فيه أئمة اللغة؟

وذكر أبو الحسن في كتاب الإفصاح قال: سئل الخليل هل وجد في اللغة: استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها. وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله.

فحينئذ حمله على ما لا يعرف حمل باطل.

الثامن: أنه روي عن جماعة من أهل اللغة أنه لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا فيمن كان منازعاً مغالباً، فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل استوى، والله لم ينازعه أحد. =

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في اليد الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

= التاسع: أنه لو ثبت أنه في لغة العرب لم يجب أنه من لغة العرب العربي، ولو من لغة العرب العربي لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ، ولو كان من لغته لكان المعنى المعروف في الكتاب والسنة هو الذي يراد به.

العاشر: أن معنى الاستواء كان معلوماً ظاهراً بين الصحابة والتابعين وتابعيهم فيكون التفسير المحدث بعدهم باطلاً قطعاً، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي قال: من قال إن الرحمن على العرش استوى: خلاف ما تقرر في النفوس فهو جهمي، وقول مالك: الاستواء معلوم، ليس المراد أن هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قال استولى، وإنه يسأل عن الكيفية، ومالك جعله معلوماً والسؤال عن نزول لفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكلام فيه؛ فقد تكلم فيه بعض الصحابة والتابعين، وإنما البدعة السؤال عن الكيفية، ومنشأ هذه الضلالات من سوء التخيلات.

انتهى كلام الشيخ ملخصاً.

وقد رد هذا التأويل أيضاً من عشرين وجهاً وأبطله ابن القيم ـ رحمه الله ـ من أربعين طريقة في كتابه (الصواعق) وكذا غيرهما من أهل العلم، فرحمهم الله وعفا عنهم، وألحقنا بآثارهم، إنه على كل شيء قدير.

قال مؤلفه: كمل على يد جامعه في اليوم السابع من شوال سنة ١٢٥٥ من هجرة الرسول ﷺ، وكتبه الفقير إلى الله عبد العزيز بن ناصر بن رشيد غفر الله له ولوالديه ولمشايخه آمين.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

المقدمة ٥
التعريف بالشارح ٧
١ ـ كتاب التوحيد ٩
٢ باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ١٥
٣ باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ١٩
٤ ـ باب: الخوف من الشرك ٢٣
٥ ـ باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ٢٦
٦ ـ باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ٣٠
٧ ـ باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه. ٣٤
٨ ـ باب: ما جاء في الرقى والتمائم ٣٧
٩ ـ باب: من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما ٤٠
١٠ ـ باب: ما جاء في الذبح لغير الله ٤٣
١١ ـ باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله ٤٧
١٢ ـ باب: من الشرك النذر لغير الله ٤٩
١٣ ـ باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله ٥٠
١٤ ـ باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره ٥٢
١٥ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢] ... ٥٥
١٦ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝﴾ [سبأ: ٢٣] ٥٨

١٧ ـ باب: الشفاعة.......... ٦٢
١٨ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].... ٦٥
١٩ ـ باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ٦٨
٢٠ ـ باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ٧٢
٢١ ـ باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ٧٧
٢٢ ـ باب: ما جاء في حماية المصطفى (ﷺ) جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.......... ٧٩
٢٣ ـ باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.......... ٨١
٢٤ ـ باب: ما جاء في السحر.......... ٨٧
٢٥ ـ باب بيان شيء من أنواع السحر.......... ٩٠
٢٦ ـ باب: ما جاء في الكهان ونحوهم.......... ٩٣
٢٧ ـ باب: ما جاء في النشرة.......... ٩٦
٢٨ ـ باب: ما جاء في التطير.......... ٩٨
٢٩ ـ باب: ما جاء في التنجيم.......... ١٠٤
٣٠ ـ باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.......... ١٠٦
٣١ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].......... ١١٠
٣٢ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].......... ١١٤
٣٣ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣] ١١٧
٣٤ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].......... ١٢٠
٣٥ ـ باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله.......... ١٢٢

٣٦ ـ باب: ما جاء في الرياء........................ ١٢٥
٣٧ ـ باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.............. ١٢٧
٣٨ ـ باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً........................ ١٣٠
٣٩ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]........ ١٣٢
٤٠ ـ باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات.............. ١٣٦
٤١ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ١٣٩
٤٢ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]........................ ١٤١
٤٣ ـ باب: ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله............... ١٤٤
٤٤ ـ باب: قول ما شاء الله وشئت.................... ١٤٥
٤٥ ـ باب: من سب الدهر فقد آذى الله................ ١٤٨
٤٦ ـ باب: التسمي بقاضي القضاة ونحوه................ ١٥٠
٤٧ ـ باب: احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك.......... ١٥٢
٤٨ ـ باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول......... ١٥٤
٤٩ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]........................ ١٥٧
٥٠ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]............ ١٦١
٥١ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ١٦٣
٥٢ ـ باب: لا يقال السلام على الله.................... ١٦٦
٥٣ ـ باب: قول: اللهم اغفر لي إن شئت.................. ١٦٧

٥٤ ـ باب: لا يقول عبدي وأمتي........................ ١٦٨
٥٥ ـ باب: لا يرد من سأل بالله........................ ١٦٩
٥٦ ـ باب: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة........................ ١٧١
٥٧ ـ باب: ما جاء في اللو........................ ١٧٢
٥٨ ـ باب: النهي عن سب الريح........................ ١٧٥
٥٩ ـ باب: قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]........................ ١٧٦
٦٠ ـ باب: ما جاء في منكري القدر........................ ١٧٩
٦١ ـ باب: ما جاء في المصورين........................ ١٨٤
٦٢ ـ باب: ما جاء في كثرة الحلف........................ ١٨٦
٦٣ ـ باب: ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه........................ ١٨٩
٦٤ ـ باب: ما جاء في الإقسام على الله........................ ١٩٢
٦٥ ـ باب: لا يستشفع بالله على خلقه........................ ١٩٣
٦٦ ـ باب: ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد........................ ١٩٤
٦٧ ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]........................ ١٩٦
الفهرس........................ ٢٠٥